التحقيب السياسي لتاريخ الأدب

نظرات ومراجعات

نُشر ضمن الكتاب المهدى إلى أبي أوس إبراهيم الشمسان، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٢م.

مدخل:

دأب الباحثون ودارسو الأدب العربي على إسقاط الأدب العربي وتاريخه وتحوّلاته في تقسيم عُرف باسم (التحقيب السياسي)[١]، وجعلوا نظرهم في الأدب قديمه وحديثه منُوطًا بهذا التقسيم، فنقل لاحقٌ عن سابقٍ، حتى استقرّ في الأذهان أنْ لا معوَّلَ فهم الأدب وتاريخه إلا عليه، وتطرّق إلى العقول أنْ لا سبيلَ إلى استيعاب تحوّلات الأدب ومعرفةِ رجاله وفنونه إلا به، حتى غدتْ مراجعته ضربًا من الحرْث في أرضٍ أنهكها الزُّرّاع، وحتى ظُنَّتْ تقحُّمًا في مسألة (عُرفيّة) لا يُستطاع زحزحتُها وإبدالُ ما هو خيرٌ منها بها.

وقد كنتُ منذ حينٍ أراود نفسي على مراجعة ذلك التحقيب، وآطِرُها على تأمّلٍ ونظرٍ؛ لعلي أقترحُ ما هو خيرٌ، أو ما هو أبعدُ عن الإشكالات التي أورثنا إياها.

وها هي مقالتي هذه تسعى إلى مقاربة المسألة، وتقليب وجوه النظر فيها، مفيدًا من جهد علماء ونقّادٍ ودارسين سبقوني إلى دراستها ونقدها.

وقبل أن أفصّل القول أعرضُ عرضًا موجزًا للعصور الأدبية التي يحتجِنُها ذلك التحقيب؛ لأهمية إدراكها في كشف بعض الإشكالات.

---

(١) التحقيب مشتق من الحِقْبة، وهي مدة من الدهر، قيل: ثمانون سنة، وقيل: لا حدّ لها. انظر: اللسان (حقب).

تقسيم العصور الأدبية:

إن عصور الأدب الكبرى عند جمهرة من الباحثين ثلاثة أقسام:

١. الأدب القديم، الذي يبدأ من أقدم ما نعرفُ من زمان الجاهلية إلى آخر العصر الأموي. ويُلحظُ أنْ لا بداية جليّةً له.

٢. الأدب المحدَث، ويبدأ من سقوط الدولة الأموية إلى نحو بداية القرن الثالث عشر الهجري (نحو مطلع القرن التاسع عشر للميلاد).

٣. الأدب الحديث، ويُبتَدأ به من مطلع القرن التاسع عشر إلى اليوم[١].

ثم قُسِّمت هذه العصور أقسامًا واختُلِف في تحديد بعضها على هذا النحو:

١. العصر الجاهلي: وبدايته غير معروفة، ولكن أكثر الدارسين يذهب إلى أنه لا يزيد عن مئتي سنة قبل الإسلام، اتكاءً على استظهار الجاحظ الذي ردّه إلى نحو مئتي سنة أو خمسين ومئة[٢]، أما أحمد حسن الزيات فجعل مبدأَه استقلالَ العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد[٣].

٢. عصر صدر الإسلام: ويبدأ بظهور الإسلام، وينتهي بنهاية عهد الخلفاء الراشدين، بمقتل علي رضي الله عنه عام ٤٠هـ.

٣. العصر الأموي: ويبدأ عام ٤٠هـ بتولي معاوية رضي الله عنه الخلافة، وينتهي بسقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ.

وبعض الدارسين يجعل العصرين الثاني والثالث باسم واحد هو (العصر الإسلامي)[٤].

٤. العصر العباسي، وهو ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر: المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، ١١.

(٢) انظر: الحيوان، ١/٧٤. وراجع: تاريخ آداب العرب، ٢/١٥-١٧.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ٥.

(٤) انظر: العصر الجاهلي، ١٤، والعصر الإسلامي، ٩، ١٣٧. وبعضهم يُبقي الاسم (عصر صدر الإسلام) وجعله شاملا عهد بني أمية. انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ١٠.

- العباسي الأول، ويسميه بعضهم (حقبة بغداد) من عام ١٣٢هـ حتى عام ٢٣٢هـ، وجعله بعضهم إلى مقتل الخليفة المتوكل عام ٢٤٧هـ[١].
- العباسي الثاني، ويسميه بعضهم (حقبة الدُّوَيلات)، وينتهي بخلع الخليفة المستكفي عام ٣٣٤هـ، واستيلاء البُويهيين على مقاليد الحكم[٢].
- العباسي الثالث، وبعضهم يسمّيه (الحقبة السُّلجوقية)، وينتهي عام ٦٥٦هـ، باجتياحِ التتار بغدادَ، وسقوطِ الدولة العباسية[٣].

٥. عصر الدول المتتابعة[٤]، أو عصر الدول والإمارات[٥] أو عصر الدول المتزامنة[٦]، ويدخل فيه دول قامت قبل سقوط بغداد، وبعض الدارسين يقسمه أعصرًا أدبية يندرج فيها:

- العصر السلجوقي من عام ٤٢٩ حتى عام٦٣٩هـ.
- عصر الحروب الصليبية من عام ٤٨٩هـ حتى عام ٦٤٨هـ.
- العصر الأيوبي من عام ٥٥٥هـ حتى عام ٧٣٢هـ.
- العصر المملوكي، وهو قسمان: عصر المماليك البحرية من عام ٦٤٨هـ حتى عام ٧٨٤هـ، وعصر المماليك البُرْجية من عام ٧٨٤هـ حتى عام ٩٢٣هـ.
- العصر العثماني، ويبدأ عام ٩٢٣هـ حتى بداية ما سُمّي (العصرَ الحديث).

---

(١) انظر: العصر الجاهلي، ١٤.

(٢) انظر: المصدر السابق، نفسه.

(٣) انظر: المصدر السابق، نفسه.

(٤) وممن ارتضى هذه التسمية حسن العدل وأحمد الإسكندري ومصطفى عناني وعمر موسى باشا. وانظر: أدب الدول المتتابعة الزنكية والأيوبية والمماليك، سامي يوسف أبو زيد، ٢٠١٢م. وفي الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ١٠ سُمّي (عصر الدول المتتابعة التركية)، وجُعل شاملًا دولتي المماليك بمصر والشام، والدول التي تلت التتار في آسيا، وممالك الدولة العثمانية! وبيّن أن وصف الدول بالتركية غير صحيح.

(٥) وأشهر من ارتضى هذا المصطلح شوقي ضيف، جاعلًا إياه عنوانًا متفرّعًا لثلاثة أجزاء من كتابه الكبير (تاريخ الأدب العربي)، وانظر كتابه في تلك السلسلة: العصر الجاهلي، ١٥.

(٦) اقترحه خالد الجديع. انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ١٤٣١/٣/٢٥هـ، ٢٠١٠/٣/١١م.

٦. العصر الحديث[١]، وفي بدايته أقوال:

- أنه بدأ عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م مع الغزو الفرنسي لمصر (حملة نابليون)[٢].

- أنه بدأ مع ظهور المطابع والصحف في لبنان وسورية ومصر مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، ويوافق النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري.

- أنه بدأ باستيلاء محمد علي باشا (ت ١٢٥٦هـ/١٨٤٩م) على حكم مصر[٣].

- أنه لم يبدأ في سنة أو نحوها، بل كانت بدايته في نحو مئة عام (من منتصف القرن الثاني عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجريين) وذلك عندما نشطت بضع حركات إصلاحية في العالم العربي، وكان لها أثر فاعل في نهضة العرب[٤].غير أن لعمر فروخ رأيًا في مفهوم (الأدب الحديث) خالف فيه من سبقه، ولم يتابعه عليه أحد، على ما رأيت، إذ جعله مبتدئًا بمطلع القرن العاشر (٩٠١هـ) منتهيًا بنهايته (١٠٠٠هـ)[٥].

ولدارسين آخرين اجتهادات مختلفة في التحقيب، لم أر ضرورة تتبعها؛ لأن المعوّل على نقد فكرة (التحقيب السياسي) بعيدًا عن تفصيلاتها وتعدد الآراء فيها[٦]. غير أني أشير إلى أن المستشرقين الذين عُنُوا بالتحقيب اختلفوا في تقسيم العصور أيضًا، وأكتفي بذكر تقسيم بروكلمان الذي جعله في مرحلتين:

---

(١) في الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ١٠ سُمّي (عصر النهضة الأخيرة) وجعلت بدايته بعام ١٢٢٠هـ.

(٢) قال فيصل أصلان: إن انتهاء ما سمي العصر العثماني بنابليون لا بالحرب الأولى أثرٌ من الرؤية الاستشراقية، والنزعة المركزية الأوروبية. انظر: إشكالية التحقيب الأدبي، العصر العثماني مثالًا، ١٦٣.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ٥.

(٤) انظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ٨٦.

(٥) انظر: معالم الأدب العربي في العصر الحديث، ١/٥.

(٦) وبعضها في كتب معنية بالتاريخ العام لا تاريخ الأدب، غير أنها تتصل بهذه الفكرة. انظر مثلًا: تاريخ العرب (لفيليب حتّي وآخرَين)، ١٨٩/١، فقد سمى مؤلفوه عصر الراشدين (عصر الفتح والتوسّع والاستعمار)، واستعمال لفظ (الاستعمار) مع ما له من ظلال سلبية مثير للريبة، وقالوا: إنه يجوز نعته بالعصر الجمهوري، وبدأت بعده عصور الخلافة على ما سمّوها. انظر: ص٢٤٣. واستعملوا أيضًا مصطلح (العصر الأموي)، وكان تعبيرهم عن بعض الأزمنة وما فيها من تبدلات سياسية أدقّ، إذْ عبّروا بـ(تجزّؤ الخلافة ونشوء دُويلات). انظر: المرجع السابق، ٣٠٨/٢، ٥٤١.

الأولى: أدب الأمة العربية من أوليته إلى سقوط الأمويين سنة ١٣٢هـ، وجعلها في أقسام:

١) الأدب العربي إلى ظهور الإسلام.

٢) محمد [ﷺ] وعصره.

٣) عصر الدولة الأموية.

والثانية: الأدب الإسلامي باللغة العربية، وجعله أقسامًا:

١) عصر ازدهار الأدب في عصر العباسيين بالعراق منذ نحو ٧٥٠م إلى سنة ١٠٠٠م.

٢) عصر الازدهار المتأخر للأدب منذ سنة ١٠٠٠ إلى سقوط بغداد.

٣) عصر الأدب العربي منذ سيادة المغول إلى فتح مصر على يد السلطان سليم.

٤) عصر الأدب العربي من سنة ١٥١٧ حتى أواسط القرن التاسع عشر.

٥) الأدب العربي الحديث[١].

وبروكلمان —وإن اقترح التقسيم المشار إليه أعلاه- لا يدع بعض المصطلحات غير المستقرة أو غير المجمَع عليها، فهو يستعمل مصطلح (العصر الطولوني)، و(العصر الإخشيدي)[٢].

ويشير شوقي ضيف إلى أن أكثر من أرّخوا للأدب العربي وزّعوا حديثهم على خمسة عصور أساسية، هي المذكورة أعلاه، (الجاهلي فالإسلامي، فالعباسي، فالدول المتتابعة، فالعصر الحديث) أما عصر العباسيين (١٣٢-٦٥٦هـ) فأشار إلى أنه يُجعل عند بعضهم قسمين: عصرًا أولَ، يمتدّ نحو مئة عام، وثانيًا يمتدّ إلى سقوط خلافة العباسيين[٣]، وربما أضاف بعضهم عصرًا عباسيًّا رابعًا، وذلك بجعل العصر الثالث المذكور فيما سلف قسمين: قسمًا ينتهي بدخول السلاجقة بغداد عام ٤٤٧، ويمتد الرابع إلى سقوط بغداد[٤]. وضيفٌ شديد الانتقاد لمن مدّوا العصر العباسي؛ ولهذا آثر جعله في قسمين فحسب، الأول ينتهي بسنة ٢٣٢، والثاني ينتهي باستيلاء البويهيين على بغداد سنة ٣٣٤[٥].

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/٩٦-٩٧.

(٢) انظر: المصدر السابق، ١/٤٢٠.

(٣) انظر: العصر الجاهلي، ١٤.

(٤) انظر: المصدر السابق، ١٤.

(٥) انظر: الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، ١٣٢، والعصر الجاهلي، ١٤-١٥.

ومن الدارسين من سمّى القرون الثلاثة بعد سقوط بغداد باسم (العصر المغولي)[1]، وهو مذهب عرَض لنقده شوقي ضيف، قائلًا: إن سلطان المغول في تلك القرون لم يتجاوز إيران والعراق، فمن الخطأ تسميته بذلك. وعليه رأى دمج العصر المغولي في عصر الدول والإمارات؛ لأن هذه التسمية ألصق بالعصر، وأدقّ، وأكثر صدقًا على الواقع[2]. وضيف يقِرّ بأن عصر الدول والإمارات طويل جدًّا، متعدّد البيئات والأقاليم، ولكنه يرى أن هذا الطول وذلك التعدّد لم يحملا تفاصُلًا بين الشعوب في الثقافة والشعر[3].

وأشار ضيف إلى مذهب بعضهم في تسمية حكم العثمانيين لأغلب البلاد العربية باسم (العصر العثماني)، وانتقده، ذاهبًا إلى أنه تصوّر مخطئ؛ وعليه رأى إدراج ما يسمى العصر العثماني في عصر الدول والإمارات أيضًا[4].

أما مصطلح (عصر الدول المتزامنة) فهو اقتراح خالد الجديع الذي علّله بكلام منطقي مقنع، إذ قال: إنه يساعد في حلّ هذه القضية الشائكة آملًا أن يَدخُل تقسيماتِ العصور عوضًا عن الأسماء السالفة (يعني المتتابعة وغيره)؛ لأنه يصدق على دول العصر الوسيط، فهي متزامنة في مدة وجودها، فالدولة الزنكية (٤٨٠ – ٥٧٧ هـ) كانت في زمن الدولة العبيدية (٣٥٨ – ٥٦٧هـ)، وفي تلك المدة أيضًا كانت الدولة العباسية قائمة (١٣٢- ٦٥٦هـ)، ولكنها لم تستطع في جميع مراحلها أن تُحكِم السيطرة حتى على العراق وحده؛ فنفوذ الدولتين البويهية والسلجوقية كان أقوى منها، وكانت في ذلك الزمن دول أخرى متاخمة لها مستقلّة عنها، كالدولة السامانية والدولة الزيارية والدولة الغزنوية، وهذا يؤكد أن التزامن حاصلٌ على امتداد تاريخ تلك المدة الطويلة بالنظر إلى أنه لم تظهر دولة واحدة تسيطر على بقاع العالم الإسلامي قاطبة، ومن هنا يُلِحُّ مصطلح (الدول المتزامنة) لتقديم نفسه بديلًا عن تلك التسميات[5].

---

[1] انظر مثلًا: حضارة العرب، ٩٠.

(٢) انظر: عصر الدول والإمارات (٥)، ٥.

[3] انظر: الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، ١٣٢.

(٤) انظر: عصر الدول والإمارات (٥)، ٥.

(٥) انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ١٤٣١/٣/٢٥هـ، ٢٠١٠/٣/١١م.

على أني رأيتُ في صَنيع ابن ظافر الأزدي (ت٦١٣هـ) ما يستدعي النظر، فإنه قد سمّى كتابه (الدول المنقطعة) يعني بها دولًا مثل الطولونية والإخشيدية والعُبيدية والصَّنهاجية، وهي التي انفصلت عن سلطة الدولة العباسية، فإن أبقينا هذا التحقيب، فهل نسمي هذا العصر عصرَ الدول المنقطعة؟

عصور الأدب في الأندلس[1]:

شهدت بلاد الأندلس ازدهارًا في الأدب العربي، واصطبغ الإنتاج الأدبي فيها بصبغة جعلت الدارسين يُفردونه بتقسيمٍ آخر، مندمِجٍ زمنيًّا في العصور الأدبية في المشرق. وعصور الأدب الأندلسي هي:

١. عصر الولاة (أو عصر سيادة قرطبة) من عام ٩٢هـ حتى عام ١٣٨هـ.
٢. عصر الدولة الأموية من ١٣٨هـ حتى عام ٤٢٢هـ، ويجعله بعضهم قسمين:
   - عصر الإمارة من عام ١٣٨هـ حتى عام ٣١٦هـ.
   - وعصر الخلافة من عام ٣١٦هـ حتى عام ٤٠٠هـ.
٣. عصر ملوك الطوائف من عام ٤٢٢هـ حتى عام ٤٨٤هـ.
٤. عصر المرابطين من عام ٤٨٤هـ حتى عام ٥٤٣هـ.
٥. عصر الموحِّدين من عام ٥٢٤هـ حتى عام ٦٧٤هـ.
٦. ثم العصر الذي شهد بعض الدويلات حتى سقوط غرناطة عام ٨٩٧هـ.

جذور التحقيب وبداياته:

لهذا التحقيب جذور وأصول وردت في بعض مدونات الأدب القديمة، نستنبطها من استعمال العلماء والأدباء لبعض المصطلحات التي استقرّت في هذا المنهج، كالتعبير بـ(شعراء الجاهلية)، و(الإسلامي)، و(الخضْرمة)، ولكنها لم تستوِ تقسيمًا ذا حدودٍ وأُطُرٍ، إلا في إطلاق أوصاف مثل الجاهلي والإسلامي والمخضرم ونحو ذلك، ومن هذا القبيل قول أبي عَمْر بن العلاء: "لو أدرك الأخطل

---

(١) وليس من الصواب أن يوسم الأدب كلّه في الأندلس بأنه (العصر الأندلسي)؛ ففي هذا خروج عن التحقيب نفسه، وإبعاد للنَّجْعة بنسبة العصر إلى إقليم.

يومًا واحدًا من الجاهلية ما قدّمتُ عليه أحدًا"[١]، فهذا يعني أنه يرى فصلَ ما بين زمان وزمان. ومثله قولُ ابن سلّام: "ففصّلنا الشعراءَ من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهليةِ وأدركوا الإسلام"[٢]، ونقلُه قولَ ابنِ أبي إسحاق: "أهل الجاهلية... وأهل الإسلام"[٣]، ولما جاء إلى ذكر شعراء ما سُمّي العصرَ الأموي قال: (طبقات الإسلام)، وأشار المحقق إلى أنه في بعض النسخ (الطبقة الأولى من الإسلاميين)[٤]، والإسلاميون عنده هم الذين عاشوا بعد زمن الخلفاء الراشدين. ونجد عند ابن قُتيبة قوله المردَّد عن بعض الشعراء: إنه كان جاهليًّا إسلاميًّا[٥]، و(الجاهلي الإسلامي) مرادف للفظ (مخضرم)، ونراه —ومثله أبو الفرج الأصفهاني– يستعمل لفظي (جاهليّ) و(مخضرم) كثيرًا[٦]. وكذلك نجد المرزوقي (ت٤٢١هـ) يقول عن أبي تمام: إنه "اعتسف في دواوين الشعراء جاهليّهم ومخضرمهم، وإسلاميهم ومولَّدهم"[٧]. والثعالبيّ يذكر مصطلحات (الجاهليين والإسلاميين، والمحدَثين، والمولَّدين، والعصريين)[٨]، وقريبٌ منه الميكاليّ (ت٤٣٦هـ) الذي استعمل المصطلحات نفسها، إضافة إلى مصطلح (المتقدمون من الإسلاميين)[٩]، أما مصطلحا (العصريين والمعاصرين) فكثيرا الورود في الكتب[١٠]. ونجد أيضًا مصطلح (مخضرمي الدولتين)[١١]، وكل ذلك يكشف بعضَ جذور هذا التحقيب.

---

(١) الأغاني، ٢٨٤/٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء، ٢٣-٢٤.

(٣) المصدر السابق، ٥٢.

(٤) انظر: المصدر السابق، ٢٩٦. وانظر استعماله لفظ (الإسلاميين) في ص٥٥.

(٥) انظر: الشعر والشعراء، ٦١٣، ٦٣٣، ٦٣٥، ٦٥٣.

(٦) انظر: المصدر السابق، ٦٤٨ مثلًا. والأغاني، ٢٦٠/١١، ٢٧٥.

(٧) شرح ديوان الحماسة ، ١٣/١.

(٨) انظر: يتيمة الدهر، ٣/١-٤.

(٩) انظر: المنتَحَل، ٥١/١-٥٤.

(١٠) انظر مثلًا: يتيمة الدهر، ٤/١، ومعجم الأدباء، ٢٧٧/١١، ١١/١٢.

(١١) انظر مثلًا: التذكرة الفخرية، ٣٢. وانظر كلام ابن رشيق عن مصطلح (مخضرم) واشتقاقه. العمدة، ١١٣/١.

أما التحقيب في العصر الحاضر فمنشؤه عند المستشرقين، إذْ هو أوروبي النشأة، في عام ١٧٣٣م حين ألّف الفرنسي أندري دوشيسن (Du chesne) كتابه (تاريخ فرنسا الأدبي)، وفيه قسّم الأدب الفرنسي على العصور والأحداث السياسية[١]. وبدايته الواسعة كانت في القرن التاسع عشر، بتنظيم تاريخ الأدب في إطار التسلسل الزمني المرتبط بالأحداث السياسيّة.

ومبدأ التحقيب جاء مقترنًا بالمقاربة اللغوية للنصوص، فهما أهم دعامتين نشأ عليهما مفهوم تاريخ الآداب الأوروبي في القرن التاسع عشر، وأغلب المؤلفات التي أرّخت للآداب الأوروبية –في هذه المدة– تستوحي هذا المبدأ[٢].

أما أول من نهج هذا التحقيب في دراسة الأدب العربي فهو النمساوي بورجستال (purgstall) في كتابه (تاريخ الأدب العربي إلى نهاية القرن الثاني عشر) وطُبع عام ١٨٥٠م[٣]. وسار بعض المستشرقين على هذا النهج مثل أربتنوت (Arbuthnot)، وفون كريمر (Von kremer) الذي أثنى بروكلمان (Carl Brockelmann) ثناءً حسنًا على كتابه عن (تاريخ عمران المشرق في عصر الخلفاء) مثلما أثنى على عمل نيكلسون (Nicholson) الذي نظر إلى الأدب العربي في ضوء التاريخ السياسي والعمراني للعرب والإسلام، واقتفى أثره ميتز (Metz) بنظراته الحصيفة في تناوُل العصر العباسي[٤].

---

(١) انظر: المنهج التاريخي في نقد الأدب العربي، ٩. "ومن التصورات التي عرفها تاريخ الأدب الفرنسي مفهوم التحقيب، الذي يُقطَّع فيه الأدب على أساس القرون، أو التيارات، أو الأجيال". انظر: رهانات تاريخ الأدب (مرجع شبكي سابق)، بتصرف يسير.

(٢) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، وإشكالية المركز والهامش، محمد مريني. عن موقع www.alhiwartoday.net. مجلة التسامح، عُمان، العدد ٢٦، (ربيع، ١٤٣٠/٢٠٠٩)، ٣٤٨.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ٩١/١.

(٤) انظر: المصدر السابق، نفسه. وينبغي التوجّسُ من ثناء بعض المستشرقين على بعض، فإن عند بعضهم من الأوهام، والخلط والاضطراب، وضعف الرؤية العلمية ما يستدعي الحذر. وحسبنا أن ننظر إلى تقسيمات نيكلسون للعصور، ففي بعضها تكلف ووهن، وقد أشار فيصل أصلان في مقالته المحكمة إلى أنه اخترع عصرًا عجيبًا سماه (من الغزو المغولي إلى العصر الحاضر)! انظر: إشكالية التحقيب الأدبي، العصر العثماني مثالًا، ١٦٤.

ثم أخذ بعض العرب بهذا المنهج، فصدرت لهم كتب عدّة نعتها بروكلمان بضآلة القيمة، وأن مقصِد أكثرها إلى أغراض التعليم[١]، ومنهم محمد دياب في (تاريخ آداب اللغة العربية)، وجرجي زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية)، وفيه يقول: إنه قسّم تاريخ الآداب إلى عصور حسب الانقلابات السياسية، لبيان ما يكون من تأثير تلك الانقلابات فيها[٢]، فجعلها بعد الإسلام هكذا: صدر الإسلام فالأموي فالعباسي فالمغولي فالعثماني فالعصر الحديث، وجعل من غاياته بيان تاريخ ثمار عقول أبناء العربية، ونتائج قرائحهم، والكشف عن تاريخ كل علم من علومهم، ووصف الكتب على اختلاف موضوعاتها[٣]، ومن الاجتهاد الذي أراده زيدان معينًا على تقديم صورة كاملة عن تطور الأدب دراسةُ الشعر في مراحل[٤]. وبعض الغايات التي صرّح بها جعلت كتابه غير مشابهٍ لما تسير عليه أغلب كتب تاريخ الأدب، ويقرّبه من كتب (تاريخ العلوم أو تاريخ التأليف). وعلى كل حال فقد عدّه مارون عبود أولَ من اهتمّ بالتأريخ للأدب على الطريقة الحديثة على ما سمّاها[٥].

وممن سلك هذا المسلك حسن توفيق العدل في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية)، وفيه قسّم تاريخ الأدب خمسة أقسام (عصر الجاهلية، فابتداء الإسلام، فالدولة الأموية، فالعباسية والأندلس، فالدول المتتابعة إلى هذا العهد). وأحمد الإسكندري ومصطفى عناني في كتابهما (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه) وقِسْمة العصور عندهما على هذا النحو: (الجاهلي فصدر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، فعصر بني العباس، فالدول المتتابعة منهيِيْن إياها بعام ١٢٢٠هـ، فعصر النهضة الأخيرة التي تبدأ بحكم محمد علي باشا). ووافقهما أحمد حسن الزيات، ولكنه سمّى ما بعد سقوط بغداد بالعصر التركي[٦]، وفي أثناء كتابه عرَض لما سمّاه (عهد الفاطميين)[٧].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ٩٢/١.

(٢) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، ٩/١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ٩/١.

(٤) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، ٣٠٤/١.

(٥) انظر: أدب العرب، ٣٢٩.

(٦) انظر: تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ٥.

(٧) انظر: المصدر السابق، ٣٤٦.

أما حنّا الفاخوري فوافق وخالف، إذ عنده (الأدب العربي القديم) ويشمل العهد الجاهلي والعهدين الإسلامي والأموي، ثم (الأدب العربي المولّد) ويشمل الأدب العباسي، وأدرج في فرع الشعر العباسي (الشعر في ظلّ الإمارات)، ثم جاء بـ(الأدب في الأندلس والمغرب)[١]. وجعل ما سماه (أدب الانحطاط) قائمًا بنفسه، مبتدئًا به من عام ٦٥٦هـ[٢]. وذلك تقسيم مضطرب بلا شك[٣].

ويظهر الاضطراب في عمل أسعد داغر (ت١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) فقد أغفل ذكر النبي ﷺ وهو يقسّم الحقب[٤]، وابتدأ بما سماه (عصر الخلفاء الراشدين)، ثم سرد الحقب على هذا النحو (الدولة الأموية في الشرق، والدولة الأموية في الأندلس، فملوك الطوائف فدولة الموحّدين، فالدولة العباسية، فالعصر المغولي، فالعصر العثماني)![٥] وهذا اضطراب في الترتيب ظاهر، وتداخل غريب!

ولستُ في مقام استعراض من سلكوا هذا المنهج، ولا من غايتي أن أبسط وجهاتِ أنظارهم في طرائق التحقيب، فلهذا مقامٌ آخرُ، فالذي يعنيني هنا أن أشير إلى أن من آثروا منهج التحقيب يرون أن إخضاع الأدب للسياسة مبنيّ على أن السياسة هي التي تتحكّم في قوة الأدب أو ضعفه، فضلًا على أنه يقدّم إطارًا تاريخيًّا عامًّا للأدب، فيه ما هو سياسي واجتماعي واقتصادي وديني وحضاري ولغوي، وأن هذا المنهج يستعين بما هو فني في قسمة الأدب إلى شعر ونثر وغير ذلك[٦]. وبذلك "يسهل تخزينه في الذاكرة، ويوهم بالإحساس بالانتماء إلى هوية ملموسة"[٧].

---

(١) انظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، ٤٥، ٢٩٥، ٥١٥، ٧٨٣، ٨٨٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ١٠٢٤.

(٣) ومن اضطراب المصطلحات عند فاخوري ما سمّاه (النيوكلاسيكية الشعرية)! انظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ٧٢٥.

(٤) وظهور النفَس النصراني المتعصّب ظاهر عند بعض من اعتنوا بتاريخ الأدب، مثل داغر وحنا فاخوري وقبلهما لويس شيخو.

(٥) انظر: حضارة العرب، ٤٧-٩١.

(٦) انظر: المنهج التاريخي في نقد الأدب، ٦٦.

(٧) انظر: رهانات تاريخ الأدب (مرجع شبكي سابق).

فهو قائمٌ على أهمية العامل التاريخي، والبحث عن القوانين المتحكّمة فيه، وأثر المنعطفات التاريخية الكبرى في التغيّرات المعرفية والأدبية والفنية[١]، وذلك مبنيٌّ أيضًا على أن التاريخ مفتاحٌ لفهم ظواهر الثقافة والأدب؛ ولهذا شمل بعضُهم بدراسته تاريخ النصوص الجاهلية القديمة من زاوية التحقيب للأوضاع الحضارية للعرب القدماء[٢].

وإلى ذلك المعنى أشار كُرُوْتْشِيه (croce)؛ إذْ أقرّ بأن الحقبة مواضعة فحسب، وقال وِيْلِكْ (Wellek): إن الحقبة ليست كياناتٍ، ولكنها تُشِيدُ بنسق معايير أدبية وبمواضعات، وذهب بركنس (perkins) إلى أنها حكاية ضرورية[٣].

وعلى ذلك فالتحقيب قائم على ربْطِ الأدب بالسياسة وحركة التاريخ العام، وجَعْلِ أقسام التاريخ أقسامًا لتاريخ الأدب، فالنصوص –في رأي المحقّبين– تحمل طابع السياسة، والحدث السياسي كفيلٌ بنقل الأدب من حال إلى حال، وعصور التاريخ السياسي الراقية –على ما يرون– هي عصور الأدب الراقية، والضدُّ صحيح[٤]، ومن أجل هذا قال الزيات: "التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكلِّ أمة...بل إن كليهما لازمٌ للآخر"[٥]. وهذا مسلك في فهم غاياته يوافق ما قيل عن أن منتهجي التحقيب يسوّغون الوظائف الاجتماعية للتواريخ الأدبية أكثر مما يقدّمون وصفًا حقيقيًّا لما كان عليه الحال[٦].

ويوصَف التحقيب بأنه يساعدُ على التقطيع والتجزيء، لقصد تبسيط الأدب وفهم سيرورته وتطوّره[٧]، وأنه وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب في مدارج الترقّي أو رجوعها القهقرى، وما الحدود

---

(١) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، http://www.alhiwartoday.net

(٢) انظر: النص والمنهج، ١٠٤.

(٣) انظر: المفاهيم معالم، ١٢١.

(٤) انظر: في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ٩١.

(٥) تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ٥.

(٦) انظر: المفاهيم معالم، ١٢٢.

(٧) انظر: مفهوم التاريخ الأدبي، ١٥٤.

السياسية —في رأي بعضهم- إلا كالأعلام التي يُهتَدى بها في الصحراء[١]، ولهذا رُئِي أنه يفيد "في النظر إلى الفعل الإنساني الأدبي والجمالي، بحيث يضبطُ أزمنةَ الخصب الإبداعي، أو أزمنةَ جدبه"[٢]، وأن له أهميةً إجرائية من حيث اعتمادُه أداةَ تصوّر نظري لمعالجة موضوع تاريخ الأدب[٣]. ولهذا لُجِئَ إليه لإقامة تصوّر للأعمال الأدبية المنجزة في الماضي، فله قوة تشييدية، تعين على فهم موضوع تاريخ الأدب[٤].

ولكن سوف يستبين أن اكتشاف أزمنة الخصب والجدب إبداعيًّا ليس مَنُوطًا بالتحقيب، وأن السبيل المثلى لتتبع مظاهر الأدب وتطوره وحركته، هي بعزله عن التقلبات السياسية.

من إشكالات التحقيب:

إن التحقيب السياسي لتاريخ الأدب أورث عددًا من الإشكالات، وكانت له نتائج علمية وتاريخية رهنت الإبداع العربي لتقلبات السياسة والسلطة وصراعاتها[٥]. وهو، وإن كان عُرفيًّا، ولا بدّ منه أحيانًا -على ما يقول عُمر فرّوخ- ذو ثغراتٍ لا حيلة للمؤلف في سدّها[٦].

---

(١) انظر: تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، دار المعارف، القاهرة، ط الثانية، د.ت، ٦٤، (نقلًا عن المنهج التاريخي في نقد الأدب، ٣٩).

٢() العرب وتاريخ الأدب، ٤٩.

٣() انظر: المرجع السابق، ٥٠.

٤() انظر: المرجع السابق، نفسه.

(٥) انظر: العرب وتاريخ الأدب، ١٢٢. وحتى في كتابة تاريخ الأدب الفرنسي عُمِد إلى التحقيب بالقرون، وذهب بعضهم إلى التحقيب بالجيل الذي رُئي أنه فضفاض وأقل إحراجًا وأقلّ دقة. ومع ذلك رأى ألان فيان (allan vian) أن التحقيب بالمدارس أو المذاهب الأدبية أو بالعصور السياسية، أنها كلها اعتباطية، ولكنها ضرورية من الناحية المنهجية في تاريخ الأدب. انظر: رهانات تاريخ الأدب (مرجع شبكي سابق). وقد نجد عند بعض المؤلفين موقفًا آبيًا للتحقيب، بلا تفصيل. انظر مثلًا: المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ٦٢.

(٦) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ٥/٥.

والثغرات أو الإشكالات التي يشير إليها هو وآخرون كثيرة، منها الاختلاف في عدد العصور، والاجتهادُ في تقسيم كل عصر أقسامًا ثانوية، وهذا بادٍ في تقسيم العصر العباسي ثلاثة أقسام عند أكثرهم، وفي تقسيم جرجي زيدان العصرَ الأموي ثلاثةَ أدوار، والعباسيِّ أربعةً.

وما وقع هذا الاختلاف إلا لأن المحقِّبين تنكّروا للمنطلقات النظرية التي أقاموا عليها منهجهم لما وجدوا الواقع لا يسايرها، ولا يخضع لها، وربما دفعهم إلى هذا التنكّر أن من العصور عصورًا لا يختلف الأدب فيها عنه في عصور سابقة أو لاحقة، فالفارق السياسي واضح بين الجاهلية وصدر الإسلام، ولكنّ الفارق بين الأدب في هذين العصرين لم يكن كذلك[١].

والمنطلقات النظرية المشار إليها غير مستقرّة علميًّا وواقعيًّا؛ ولنأخذ مسألة تغيّر الأدب وانتقاله من حال إلى حال، ولْنُعمِلها في الموازنة بين (العصر العباسي الأول) و(العباسي الثاني)، فهل نقف على تغيرات تكشف أن الأدب تطوّر أو تغيّر أو انحدر؟ إن ما بين أيدينا من أدب هذين العصرين أدب واحد في فنونه وأجناسه، بل في أساليب جُلّ أدبائه، ولم يكن لمقتل المتوكل وانتقال السلطة إلى من بعده أثر يستحقّ أن يُجعل لأجله عصرًا مستقلًّا. وعليه فأكثر ما يُزعَم من خصائص للعصور الأدبية غير مقنع[٢]. والحقُّ أن ثمار تأثير بعض الأحداث في الآداب لا تظهر إلا بعد حقبة، وهذا التقسيم افتئات على تطور الشعر وعلى طبيعة هذا التطور؛ لأنه لا يرتبط بالأحداث السياسية ارتباطًا كاملًا[٣]، وبعض المحقِّبين يقرّ بهذا، وعليه فأيُّ نفعٍ لمؤرّخ الآداب في استعمال المعالم بين العصور السياسيةِ معالمَ بين عصور الأدب؟[٤].

إن الإبداع واستخدام الوسائل الفنية وتطور الرؤية الشعرية لا تخضع من فورها للتغيرات السياسية والاجتماعية، فهي غالبًا بطيئةٌ جدًّا في تكيّفها مع التغييرات[٥]. ولضمور التغيرات المزعومة وغياب

---

(١) انظر: في تأريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، ٩٢، ٩٤-٩٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ١٠٠-١٠١.

(٣) انظر: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني، ١٧.

(٤) انظر: في تأريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، ٩٧.

(٥) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ٢٠٩.

الاختلافات بين العصور رأى عز الدين إسماعيل في قسمة بعض العصور عصورًا أو أقسامًا داخليّةً، حيلةً لتغطية بعض الإشكالات، ذاهبًا إلى أن التغيرات السياسية لم تكن ذات أثر كبير في الحياة العقلية والفكرية والأدبية، يقول: "ولأن العصر العباسي قد امتدّ في التقسيم التاريخي للزمن حقبةً طويلةً...فقد درج مؤرّخو أدب هذا العصر على تقسيمه داخليًّا إلى عدد من العصور، ودراسة كلّ عصر منها دراسةً مستقلّة، على أن مسوّغاتِ هذا التقسيم – الذي يرتبط بأحداث تاريخية أو تغيّرات في بعض مظاهر الحكم- لم تعدْ مقنعةً"(١).

وذلك التقسيم الداخلي للعصور هو تفتيت –على ما عبّرت خيرية السقاف- وفيه تكون قوة الأدب –على مذهبهم- مستمدّةً من قوة الدولة، ووهَنُه مرتبطًا بوهنها، وفي ذلك جورٌ على طبيعة الأدب، وأثر الأدباء، والعوامل المتضافرة لخلق الفكر الإنساني(٢).

إن هذه النظرية التحقيبية تقسّم التراث الأدبي في عصور، مراعاةً للسُّلَّم التعليمي، ولكنّها ربطت الفكر بصفة عامة بالعامل السياسي، ومنطق هذه النظرية يقتضي أن ينتهي الفكر والنشاط الأدبي بزوال دولة، وقيام أخرى محلَّها، وهذا يعني أن يُنسب النشاط الى الدولة الجديدة، ويُمحى أثر الدولة الذاهبة، وهذا الافتراض غير معقول؛ لأن المنحى التاريخي أفقد النص الأدبي أهم هدف من أهداف تدريسه، وهو تذوق النص(٣).

إن هذا الإشكال عميقٌ جدًّا؛ ومن أجل هذا –على ما بدا بيانه سلفًا- كثُر منتقدو التحقيب، فخرج عليه بعض المستشرقين مثل جبْ gibb وبلاشير regis blachere، وعمد هذا الثاني إلى "الربط بين تطور المجتمعات والوقائع الأدبية"(٤)، ونظر في الأدب القديم مثلًا دون نظر إلى تحقيب

---

(١) انظر: المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، ١١. بتصرف يسير.

(٢) انظر: مناهج دراسة الأدب العربي، ١٢٩/١.

(٣) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع staff-old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٤٣٩/٧/١٩هـ، ٢٠١٨/٤/٥م.

٤() انظر: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي (بلاشير)، مقدمة المترجم، ١/ ص (ج).

يتصل بالدول وتغيّرها[١]، منطلقًا إلى تصنيف الشعراء في مجموعات بيئية، باحثًا عن تطور الأنواع والآثار الأدبية[٢].

وانتقد التحقيبَ كارلو نالينو Carlo Nallino[٣]، وكذلك فعل الرافعي الذي صرح بأنه جعل كتابه "على الأبحاث التي هي معاني الحوادث، لا على العصور، فنخصص الآداب بالتاريخ، لا التاريخ بالآداب"[٤]، ومثله أحمد أمين، الذي وقف بضع وقفات ناقدة لذلك المسلك[٥]، وحتى قالت سلمى الجيوسي: "إن تقسيم تاريخ الشعر في مصر إلى فتراتٍ دقيقة التحديد [تعني التقسيم المرتبط بالثورات]...هو **عبثٌ في عبثٍ، وتعليبٌ تعسّفيٌّ للنمو الفني**، فالثوراتُ توقظ الدوافع العاطفية لدى الشعب، لكن النشاط المباشر الذي يظهر في مجال الفن، كنتيجة [كذا!] للفورة السياسية يجب ألا يُربط مباشرة بالنموّ الفني الحقيقيّ"[٦].

ومن إشكالات التحقيب إقامته على مبدأ التصنيف الأدبي الذي لا يخضع لضوابط التصنيف المنطقي، مثل علاقة الخاص بالعام، والتراتبية والتدرّج والاستقلالية، وإنما هو تصنيف يعتمد على عوامل مثل التقليد والاهتمامات المذهبية (الأيديولوجية) والمنطلقات الجمالية والمؤسسات[٧].

ويستبين ما ذُكر بما أشار إليه فيصل أصلان من غرابة تصنيف بعض الأدباء، فالمعرّي (ت٤٤٩هـ)، وابن النقيب الحسيني (ت١٠٨١هـ)، وعبدالغني النابلسي (ت١١٤٣هـ) جُعلوا في عصر واحد عند شوقي ضيف في (عصر الدول والإمارات) على ما بين أزمنتهم من التفاوت الواسع! قال

---

[١]() انظر: تاريخ الأدب العربي (بلاشير)، ١١/٣ وما بعدها.

[٢]() انظر: تاريخ الأدب العربي (بلاشير)، ٦٩/٢.

(٣) انظر: اتجاهات الشعر في القرن الثاني، ١٧-١٨.

(٤) المرجع السابق،، ١٨.

(٥) انظر: المرجع السابق، ١٩.

(٦) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ٢٠٩.

(٧) انظر: المفاهيم معالم، ١٢٢-١٢٣.

أصلان: ويلزم من ذلك في المنهج التاريخي الذي عمل به، أنه لم يستجدّ شيءٌ ذو بالٍ في سبعة قرون[١]!

بل صار بعض الدارسين —ولا سيما من كَلِفوا بالوصل بين الأدب من جهة والأديب وعصره من جهة أخرى– صار ينسب ما في العصر إلى الشعر، وما في الشعر إلى العصر، بلا مراعاة لما بينهما من فروق[٢]، والشعر العربي القديم لم يكن من همه أن يصور العصر[٣]، وذلك الوصل بينهما هو من آثار التحقيب الذي بالغ في إظهار سطوة العصور وتقلباتها على الأدب.

ومن إشكالات هذا المنهج اضطراب دارسي الأدب من حيث المصطلحات، فهم مختلفون على ما بدا من العرض السالف، فالرافعيُّ مثلًا عبّر بـ(أدب الأندلس)[٤]، وغيره يستعمل (الأدب الأندلسي)، وبروكلمان استعمل (العصر الطولوني) و(العصر الإخشيدي)[٥]، والإسكندري جعل (عصر صدر الإسلام) شاملًا زمن بني أمية، وجعل (العصر الحديث) باسم (عصر النهضة الأخيرة)، ومثله نالينّو، أما حسن العدل فعبّر عن العصر الأخير بقوله (عصر الدول المتتابعة إلى هذا العهد)، ولو شئتُ استقصاء الاختلاف لطال بي المقام.

وذانِك المصطلحان اللذان استعملهما بروكلمان (الطولوني والإخشيدي) يثيران إشكالًا آخر، فما الاستمرار الزمني الكافي لأن يُعدّ حقبة؟ إن حكم الطولونيين استمرّ من ٢٥٤ إلى ٢٩٢هـ أي إنه في نحو ثماني وثلاثين سنة، وحكم الإخشيديين من ٣٢١ إلى ٣٥٨ أي نحو سبع وثلاثين سنة

---

(١) إشكالية التحقيب الأدبي، العصر العثماني مثالًا، ١٥٩-١٦٠.

(٢) انظر: مدخل إلى شعر المتنبي، ٣٣.

(٣) انظر: المرجع السابق، ٣٤.

(٤) انظر: تاريخ آداب العرب، ٢/٢٢٥.

(٥) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/٤٢٠.

فحسب! فهل يمكن عدّ هذه السنوات القلائل عصرًا أ وحقبةً؟ وهل يوازي امتدادها وتأثيرها امتداد حكم الأمويين، مثلًا، وتأثيرهم؟ فجَعْلُهما حقبتين لم ينبنِ على مظهَرٍ أدبي مخصوص، زَيدًا على أنهما جزءٌ مما دُعي (العصرَ العباسي).

والغالب أن توسم المدة بأنها عصر أو حقبة، إن ظهر فيها من التفرّد السياسي أو الاجتماعي، أو التشابهات المذهبية أو اللغوية أو الأسلوبية أو الموضوعاتية ما يسوّغها، فتحديد الحقبة إذن هو إظهار لها، وإبراز لمكانتها[١]، فأين ذلك كله في تحقيب تلك المدد القصار التي لم يتّسم الأدب فيها بخصائص تفصلها عما سبقها وما تلاها؟

بل إن بعضهم –وهو ينتقد بعض الاصطلاحات–ينسى ذلك، كشوقي ضيف الذي نحا إلى تسمية (عصر الدول والإمارات) لما كان بعد عام ٣٣٤ حتى العصر الحديث، ولكنّه في أثناء بعض كتبه يورد مصطلح (العصر الأيوبي) وربما سمّاه (العهد الأيوبي)[٢].

وفي كتب المستشرقين التي نُهِج فيها التحقيب نجد من حافظ على المصطلح الشائع (العصر الجاهلي، العصر الإسلامي، العصر العباسي...)، ونرى من اعتمد مصطلحات أخرى، فالمستشرق جِيب (gibb)، مثلًا، يسبغ على العصور السياسية صفاتٍ يرى أنها طغت على العصر، فيسميها على هذا النحو: العصر البطولي (يريد به العصر الجاهلي)، ثم عصر الغزو والتوسع (يريد به العصر الإسلامي) وهكذا[٣]. بل إن هؤلاء المستشرقين مختلفون في تَعْداد العصور –وقد سبق الإلماع إلى هذا– فهي عند بروكلمان ستة، وعند نالّينو وجِيب خمسة، وعند نيكلسون وهْوار (Huart) سبعة[٤]. وهذا الاختلاف يُضاف إلى ما سبق من خلاف أكثر حدّة وظهورًا عند الدارسين العرب.

---

(١) انظر: العرب وتاريخ الأدب، ٥٢-٥٣.

(٢) انظر: عصر الدول والإمارات (٥)، ١٩، ٢٤.

(٣) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، www.alhiwartoday.net

(٤) انظر: المرجع السابق.

ومن إشكالات التحقيب ما ذكره خالد الجديع أيضًا، إذْ عرض لمصطلح (الدول المتتابعة) فقال ناقدًا مسلك عمر موسى باشا في هذه التسمية التي سايره عليها كثير من مؤرخي الأدب: إنه حين يُطْلِق هذه التسمية لا يبرهن عليها علميًّا، فهي لا تصمد للفحص منذ الوهلة الأولى – على رواجها– ذلك أن كلمة المتتابعة تعني أن دولًا تقوم وتسقط في وقت سريع، وهذا ما لم يحدث، ولا يكاد يَصْدُق هذا المصطلح إلا على الدولة الزنكية (٤٨٨-٥٧٧هـ)، أما الدولة الفاطمية فقد حكمت في مصر ما يزيد على قرنين من الزمان (٣٥٨-٥٦٧هـ)، وأطول منها دولة المماليك التي أربت على قرنين ونصف القرن (٦٤٨ – ٩٢٢هـ) أي إن امتدادها يقربُ من مجموع ثلاثة أعصر هي الجاهلي وصدر الإسلام والأموي، فكيف بعد ذلك يصحُّ أن يسمى العصر عصر الدول المتتابعة[١]؟

وفي هذا التحقيب رسخت ظاهرة (المركز والهامش)، فالعناية عند المحقّبين بالمدن الكبرى والبلدان ذات الشأن السياسي، كالعراق ومصر والشام، وباهتمام أقل ببعض أصقاع الغرب الإسلامي والأندلس، وأما ما عداها فأكثره منسيّ مهمل. كنجد وأطراف الجزيرة العربية وأعالي بلاد النيل والنوبة والسودان (بدلالتها القديمة لا الحديثة) وغيرها.

ومن المصطلحات التي أشاعها هذا التحقيب مصطلح (عصور الانحطاط)[٢]، وهو موضع نقدٍ عند طائفة من النقاد والدارسين، فعمر فروخ يقول: إن في هذه التسمية قليلًا من الصواب والحقّ،

---

(١) انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ١٤٣١/٣/٢٥هـ، ٢٠١٠/٣/١١م. وانظر أيضًا: إشكالية مفهوم عصر الدول المتتابعة، التسمية والزمن، زينب بيره جكلي، www.odabasham.net موقع رابطة أدباء الشام ، ١٤٣٧/٦/١هـ، ١٠ /٣/ ٢٠١٦م. نظرت فيه يوم ١٤٤٢/٨/١٨هـ، ٢٠٢١/٣/٣١م.

(٢) استعمل هذا المصطلح جرجي زيدان. انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، ٨/١، وكارلو نالينّو. انظر: تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، دار المعارف، القاهرة، ط الثانية، د.ت، ٦٤، (المرجع الثاني نقلًا عن المنهج التاريخي في نقد الأدب، ٣٩).

وكثيرًا من الخطأ والباطل[١]، وليس من المعقول ولا من المألوف أن نصف بالانحطاط الفكري والأدبي عصرًا كان فيه القرطبيّ وابنُ عصفور وابنُ مالك وابنُ خَلدون وغيرهم[٢].

وذهب نوري القيسيّ وحاتم الضّامن إلى أن التعبير بالمدة المظلمة وعصر الانحطاط وضع هذا العصر موضع العُزلة، وجعله بعيدًا عن الدّارسين، وأوهم أنّه متخلّف فكرًا وأدبًا، وبسببه عُزِلت جهود رائدة، وقُتلت إبداعات، وتُنُوسيت أعداد غفيرة من العلماء والأدباء، وطُمست تآليف، فلم ترَ النّور، وأثّرت في تلقي الدراسين لنتاج هذا العصر[٣].

وكذلك رفض الطناحيّ هذا المصطلح، رائيًا أنّ تقسيم حركة الفكر العربي بعامة إلى عصور علوّ وانحطاط خطأ تاريخي؛ "إذْ لم يفضُل عصرٌ أو مصرٌ سواهما إلا ما يكون من بعض الفروق الهيّنة التي تفرضها طبائع الزمان والمكان، أما حركة الفكر العربي من حيث هي فلم تخمد جذوتها"[٤].

وينتقد إبراهيم النجار هذا المصطلح، مشيرًا إلى أن أتباع المدرسة التاريخية الحديثة الذين درسوا روما في العهد الامبراطوري قد اصطدموا بالمفهوم نفسه، أي الانحطاط، وهو مصطلح غائم ملتبس المعنى غير مستقر، فصاروا يميلون إلى تعويض مفهوم (العصور القديمة المتأخرة) بمفهوم (الانحطاط الروماني)[٥].

وكان بروكلمان قد أشار إلى هذا الضعف والجمود الذي علِق بالأدب العربي، ولكنه لم يسمّه بهذا الاسم[٦]. أما خيريّة السقّاف فذهبت إلى أن هذا المصطلح نشأ بسبب الإيغال في ربط الأدب

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ٣/٥.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٦/٥-٦.

(٣) انظر: التّذكرة الفخريّة، مقدمة المحقّقَين، ص١٠-١١

(٤) مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ٢٠. ومقالات الطناحي، ١٦٢.

(٥) انظر: شعراء عباسيون منسيون، ١/٥٦، الحاشية١. و: الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، ٤١.

(٦) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/٩٦.

بالسياسة، وجعْلِه يكتسبُ منها صفاتِه[1]، وهذا هو عينُ الصواب، فإن انحطاط الأوضاع السياسية في تلك الأزمنة هو الذي دعا بعض مؤرخي الأدب وغيرهم إلى ادّعاء انحطاط الفكر والأدب بعامة.

ويرى خالد الجديع أن هذا المصطلح —وسواه من تسميات كعصور الضعف والجمود والتخلّف– لم يعد ذا ظهور في الدراسات النقدية والأدبية بعد أن خرجت إلى النور مخطوطات ذلك الزمن، واستبان فيها لبعض الدراسين أن في السرديات (الوسيطة) مادّة بكرًا وآثارًا ثرّة قادرةً على جذب القارئ وإثارة الناقد[2].

ومن مصطلحات التحقيب (الخضرَمة والمخضرَمون)، وهما مصطلحان قديمان، إذ ورد ذكرهما عند ابن سلّام والجاحظ وأبي الفرج الأصفهاني والثعالبي والميكاليّ مثلًا —وقد ألمعتُ سلفًا إلى بعض هذا–[3]، وورد التعبير بـ(مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية) عند ياقوت مثلًا[4]. ولكنّ المشكلة فيهما أنهما حيلةٌ لوصف من أدركوا عصرين مختلفين، كالجاهلية والإسلام، فيقال عنهم (مخضرمون)[5]، أو الأموي والعباسي، فيقال عنهم: (مخضرمو الدولتين). ثم يُنسى مخضرمو الدول اللاحقة، فلا يوصفون

---

(١) انظر: مناهج دراسة الأدب العربي، ١/١٣٢.

(٢) انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ١٤٣١/٣/٢٥هـ، ٢٠١٠/٣/١١م.

(٣) انظر: طبقات فحول الشعراء، ٢٤، والحيوان، ١/٣٣٠، والأغاني، ٢٢/٣٨، والتمثيل والمحاضرة، ٤٥، ٦١، والمنتَحَل، ١/٥١. وعند الثعالبي ما يكشف اضطراب استعمال المصطلحات، فقد عبّر بلفظ (المحدَثين) ثم (المولّدين) وليس بينهما فرق فيما ظهر، ثم ألحق بهذين المصطلحين (أهل العصر)! انظر: التمثيل والمحاضرة، ٧٣، ٩٩، ١٠٩.

(٤) انظر: معجم الأدباء، ١٠/١٦٧، ٢٠٩، ٢٦٧.

(٥) يدلُّ كلامُ الجاحظ عن الخَضْرمة أنها ليستْ خاصةً بالشعراء، إذ ذكر من المخضرَمين بعضَ الرجال المشهورين من غيرِ الشعراءِ، ثم قال: "ومن الشعراء النابغة الجعدي وابنُ مقبل". ثم إنه عدّ هذا اللفظ من الكلمات الإسلامية المحدَثة. انظر: الحيوان، ١/٣٣٠-٣٣١.

بهذا الوصف، فلم أجد مثلًا من وصف شاعرًا بأنه مخضرم في دولتي المرابطين والموحّدين في الأندلس والمغرب! أو مَن هو مخضرمٌ في العصر العثماني والعصر الحديث! والحقّ أنْ ليس لهذا المصطلح، أي الخضرمة، ما يستدعيه سوى حلّ مشكلة من أدركوا عصرين. ولو بحث دارس الأدب عن فائدة له لما وجدها. فلا قيمة له في تتبّع التطور التاريخي، ولا أثر له في ضبط حدود مدوّنةٍ، لأن الخضرمة صفةٌ مهَلْهَلَة، ففي دراسة هؤلاء الباحثين للمخضرمين يُدرَج من أدرك من العصر الثاني شطرًا طويلًا، ومن أدرك جزءًا قليلًا بلا ضابط منهجي، ومن مخضرمي الجاهلية والإسلام من أسلم وتأثر بالإسلام كلبيد مثلًا، ومن عاند الإسلام ومات كافرًا، كأربد بن قيس، الذي لم يدرك من عصر النبوّة سوى سُنيّات، ومن همّ بالإسلام، ولم يسلم، كالأعشى، ومن أدرك زمنًا طويلًا في الإسلام، ولم يسلم، كأبي زُبيد الطائي، ومن أسلم وضعف تأثير الإسلام في أدبه كالحُطيئة[1]. ومن المخضرمين من كان أكثر عمره في الجاهلية كأمية بن حُرثان بن الأسكر[2]، ومنهم من لم يدرك من الجاهلية إلا القليل، بل إن بعضهم كالنابغة الجعدي[3]، والأُقَيشر الأسدي ولدا في الجاهلية وعاشا حتى أدركا زمن بني أمية![4] فأين نضعه في ذلك التصنيف المربِك؟ ثم كيف يثق الباحث أو القارئ بصدق نعت الشاعر بالمخضرم، مع

---

(١) انظر: معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، ٤٠٣، ١٨، ٣٢،، ١٠٩، ١٦٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ٤٨.

(٣) انظر: الأغاني، ٨/٥.

(٤) انظر بعض أخباره الدالّة على هذا في الأغاني، ٢٣٥/١١، ٢٤٠، ٢٤٤. قال أبو الفرج: "عُمّر عمرًا طويلًا، وما أخلقه بأن يكون ولد في الجاهلية، ونشأ في أول الإسلام". المصدر نفسه، ٢٣٥/١١. وقدّر الزركليّ وفاته في نحو ٨٠هـ. انظر: الأعلام، ٢٧٧/٧.

اختلاف الآراء في زمانهم، وجهالة حياة كثير منهم، إذْ كثيرًا ما نقف على شعراء مختلَف فيهم، أعاشوا في الجاهلية فحسب، أم أدركوا الإسلام[١].

وفي ذكرهم لمخضرمي الدولتين الأموية والعباسية يُدرَجُ من أدرك بضع سنين من الدولة الثانية[٢]، ومن لا يوثق بزمنه، كأمية بن أبي عائذ الذي عُدّ من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وقيل: إنه أموي[٣].

وإن رضينا جَعْلَ ما سُمّي العصر الإسلامي في قسمين (عصر صدر الإسلام وعصر بني أمية) فبِمَ يوصف من أدرك الجاهلية وصدر الإسلام وزمن الأمويين كعَمْر بن الأهتم والجعدي وغيرهما؟ أيكون لهم نعتٌ خاصٌّ أو خَضْرمة ذات صفات مُباينة لغيرها؟

إن كثيرًا من الأدباء عاشوا عصرين، وأنشؤوا أدبهم فيهما، فهل ما قالوه في العصر الأول يختلف عما قالوه في العصر الثاني إلا في بعض المعاني؟ انظر في أشعار أبي ذؤيب الهذلي وحسان بن ثابت ومالك بن حَريم الهَمْداني من مخضرمي الجاهلية والإسلام تجدْ ما يصدّق هذا الرأي، وتأمّل شعر بشار بن برد وأبي حيّة النميري من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، واحكم: هل كان لاختلاف الحقبة أو النظام السياسي أثر يذكر سواء في لغة أشعارهم أو في صورها الفنية أو معانيها؟[٤].

إن الزمن –على رأي فروخ– "بين الجاهلية وصدر الإسلام، كان أقصر من أن يُحدِث تغييرًا محسوسًا، في تفكير العرب، وفي أساليبهم، وأذواقهم...ثم إن العرب، بين الجاهلية والدولة الأموية، لم

---

(١) انظر: معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، مثلًا ٦٢، ٢٩١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ٢١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ٤٨.

(٤) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، نشر في ٢٠١٠/٣/١٦م، عن موقع staff-old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٤٣٩/٧/١٩هـ، ٢٠١٨/٤/٥م.

يختلطوا بغيرهم اختلاطًا يؤثر فيهم...كلّ هذا حفظ للعربي معظم خصائصه القبلية والفكرية، وعاداته الشخصية والاجتماعية، فلم يتأثر كثيرًا"[١].

نعم، قد نصادف ضمن المداخل النظرية لهذه المؤلفات التاريخية عند المستشرقين، بعض الأقوال والشواهد التي تكشف عن إدراكٍ للاختلاف الحاصل بين التحقيب السياسي والتحقيب الأدبي. لكن الممارسة العملية لا تخرج عن الإطار الذي يقوم على تسويد التحولات السياسية على التحولات الأدبية[٢]. يقول نالينو: "إن هذه الحدود التي ذكرتها لكل عصر من الأعصر الستة، ليست إلا حدودًا صناعية اصطلاحية أثبتها على التقريب، فإن عصرا من التاريخ السياسي أو من تاريخ الآداب لا يحصر في مواقيت معينة بدقة...وقُصارى القول: إن قسمة تاريخ الآداب أقسامًا محصورة محدودة إنما هي وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب في مدارج الرقيّ أو رجوعها القهقرى. فالحدود المعيّنة لكل عصر هي كالأعلام التي كان أهل البدو ينصبونها في البراري والقفار، ليهتدي بها ابن السبيل"[٣]. ويقول عمر فروخ: "الأعصر الحضارية (والأعصر الأدبية) لا تنطبقُ في العادة على الأعصر السياسية"[٤]. وهذا يفضي إلى القول بتناقض المحقِّبين، فالزيات مثلًا عدّ ظهور الإسلام فاصلًا بين الجاهلية وصدر الإسلام، ومع هذا فهو يرى أن الشعر العربي ظلّ على حاله في الجاهلية وفي العصر الأموي![٥]، وفرّوخ –على أنه أكثر دقّة من غيره– يقول: اتخذت تعاقب الدول أساسًا للانتقال من عصر إلى

---

(١) عبقرية اللغة العربية، ١٩٧-١٩٨.

(٢) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، www.alhiwartoday.net

(٣) تاريخ الآداب العربية، كارلو نالينو، ٤٨-٤٩. (نقلًا عن: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، www.alhiwartoday.net)

(٤) انظر: تاريخ الأدب العربي(فروخ)، ٤/٥.

(٥) انظر: في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ٩٦.

عصر؛ لأني أحببتُ أن أستفيد من الوضوح في تعاقب العصور، مع العلم أن عددًا من الخصائص الأدبية يظلُّ مستمرًّا مع انتهاء عصر ومجيء عصر آخر[١]!

ويؤخذ على منهج التحقيب أيضًا أنه يغلّب الجانب التاريخي، ويُنحّي النص الأدبي، ويعمّم الأحكام، ولذلك وُصِف بأنه تحقيب غير أدبي[٢]، وأنه قد يغلّب الجوانب الذوقية في الحكم على النصوص، بلا مراعاة للمعايير العلمية الصارمة[٣]، وإن كان لبعض المحقّبين فضيلة الجمع بين عدة عوامل متضافرة على تكوين الأدب، منها حال الإنسان الفرد، وتأثير الجماعة والمجتمع، إذْ لم يكتفِ بإسقاط الأدب على التاريخ السياسي، وهذا ما سار عليه نالّينو[٤].

ومما نُقِد به هذا المنهج، بالنظر إلى ارتباطه بالطريقة المدرسية، أنه "يبدأ من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث، وفي ذلك ما فيه من صعوبة على الطالب في فهم البعيد قبل القريب، والصعب قبل اليسير، أفلا ترون إلى عالم الآثار يبدأ البحث من الطبقة العلوية ثم ينتقل تدريجيا إلى السفلية، ولا يفعل العكس؟ ذلك أن القريب أسهل تناولًا وأيسر فهمًا"[٥].

ومن إشكالاته افتراضه أن كلّ عصر مستقلٌّ، منبتٌّ عما قبله وما بعده، ولكن النظر العاجل يكشف هشاشة هذا الافتراض، فالتداخلُ واضحٌ بين العصور، ووضعُ حدودٍ بينها بما يميز الأدب

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ٢٧/١.

(٢) انظر: مفهوم التاريخ الأدبي، ١٥٠.

(٣) انظر: المنهج التاريخي في نقد الأدب، ٦٧.

(٤) انظر: مناهج دراسة الأدب العربي، ١٨٦/١.

(٥) نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع staff-old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٤٣٩/٧/١٩هـ، ٢٠١٨/٤/٥م.

بميزاتٍ تخصُّ كلَّ مرحلةٍ أمرٌ متعذّر[1]. لأن "الأدب لا يعرف في تاريخه تلك الانقلابات الفَجْئيّة التي تحدث أحيانًا في التاريخ السياسي، وحركةُ الأدب...بطيئةٌ يسبقها تمهيدٌ يطولُ أحيانًا"[2].

إن الجاهلية لم تنقطع بظهور الإسلام، وكيف تنقطع انقطاعًا مفاجئًا، وأعرافها ونُظُمها وتقاليد أهلها استمرّت بعد ظهور الإسلام زمنًا؟ وكفى شاهدًا على ذلك الردّة التي وقعت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فهل كانت إلا انتفاضةً من جمرٍ جاهليّ لم يخْبُ؟ ثم هل شمل الإسلام كلَّ قبائل العرب فأماط بقايا الجاهلية منها، وهذّبها وأقرّ في قلوب أهلها معانيه الروحانية وشريعته في زمن الخلفاء الراشدين؟ إن ما وصلنا من شعرهم يكشف أن كثيرًا من الشعراء لم يتأثروا بالإسلام وإن أسلموا، فبقيت لغتهم وأخيلتهم وأنماط إنشائهم للشعر جاهليةَ المبنى والمعنى.

بل إن ابتداء (عصر صدر الإسلام) مضطرب، فهل بدأ بالبعثة النبوية؟ أو بالهجرة؟ أو بفتح مكة ودَينُونة قبائل الجزيرة لسلطان الإسلام بعد السنة التاسعة؟ ومهما تكنْ بدايتُه عند المحقّبين فهي غير متفقة في الأقاليم كلّها، فصدر الإسلام في المدينة النبوية غيره في مكة، وهو في نجد وعُمان واليمن وتخوم العراق والشام متأخر عنهما إلى زمن عُمر.

ثم إن الناظر في آداب أواخر القرن الأول وثلث القرن الثاني (أي في العصر الأموي) يجد أن نتاج جمهرة من الشعراء لم يتجاوز طبيعة الشعر الجاهلي ولم يغادر أغراضه ولا عصبيته القبلية، ولا لغته، إلا في النادر الذي لا يُقاس عليه، وانظر إن شئت في شعر الفرزدق وجرير والطرمّاح بن حكيم ورؤبة والعجاج وغيرهم تجدْ ما يصدّق هذا الحكم. فكيف يُجعل هذا عصرًا قائمًا بنفسه، وتُدّعى له خصائص مخالفة للنتاج الشعري فيما قبل الإسلام؟ إن بعض دراسي تاريخ الأدب على منهج التحقيب يُقِرّون بأن خصائص الشعر في (عصر الأمويين) لم تختلف اختلافًا كبيرًا عما كانت عليه في العصر الجاهلي، يقول بروكلمان: "لم يؤثّر الإسلام تأثيرًا عميقًا في شعراء العرب، كما يريد النقاد العرب أن يقنعونا ...

---

(١) مناهج دراسة الأدب العربي،١/١٢٧.

(٢) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، ٩٧-٩٨.

فقد سلك شعراء العصر الأموي دون مبالاة في مسالك أسلافهم الجاهليين"[1]. وحكمه صحيح، إلا في مظاهر تتصل بالمعاني أكثر من اتصالها بالرؤى الفنية وسُبُل القول. فكيف ساغ إذن جعلهما عصرين منفصلين؟

ومن جناية التسمية أن إطلاق اسم (العصر الإسلامي) —وهو استعمالٌ قديم– على المدة من ظهور الإسلام إلى نهاية حكم بني أمية أورثنا ضربًا من المفارقة العجيبة، فالأخطل (النصراني) هو شاعر (إسلامي)[2].

ثم لننظر فيما يسمى العصر العباسي؟ ما حدوده التاريخية؟ قيل: إنه بدأ بانهيار الدولة الأموية عام ١٣٢هـ واستمرّ حتى عام ٦٥٦هـ بسقوط بغداد. فلنتأمل هذا:

إن سلطان بني العباس انتهى بمقتل المتوكل عام ٢٤٧، أما القرون التي وَلِيَتْه فكان السلطان فيها صوريًّا معنويًّا على بعض البلدان، ولا سلطان لهم على أكثرها. فكيف يسوغ وصف تلك القرون بالعباسية؟ ثم هل كانت الحياة العقلية والأدبية تتغيّر بتغير الحُكم وأهله؟ "إن كلّ المتغيّرات التي كانت تطرأ على حياة المجتمع في هذه الدولة لم تُحدث انقلابًا حقيقيًّا في شتى وجوه هذه الحياة"[3]، بل إن أكثر ما رصده الدراسون من تغيّراتٍ في الأدب لم تكن متصلة بالسياسة لا من قريبٍ ولا من بعيد، كالثورة مثلًا على المقدمة الطللية، والمذهب البديعي عند صريع الغواني وأبي تمام ومن سار سيرتهما الفنية. فضلًا على ما جدّ في أنماط التعبير واستحداث أجناس وتطوير أجناس أخرى.

إن ناهجي التحقيب يقرّون بأن تحديد العصر العباسي هو تحديد عرفي قليل الصلة بالحقيقة التاريخية، بل إنه بَطَلَ أن يكون هذا العصر عباسيًّا منذ أيام المتوكل نفسه، حين صار التُّرك يملكون الدولة، ويتحكمون فيها، ثم إن العصر العباسي بعد المتوكل شهد قيام دول ودويلات[4]. ولكن الخصائص العباسية —في رأي من ارتضى التسمية– ظلت سائدة —على ما يرون– في الأدب حتى

---

(١) تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ٩٥/١.

(٢) انظر مثلًا: اللآلي، ١٨٤، وشرح الحماسة للتبريزي، الحماسية ٥٧٤، وحديث الأربعاء، ١٠٠/١. وفي الأغاني، ١٧٥/٢٣ قال عن القطامي: "كان نصرانيًّا، وهو شاعر إسلامي".

(٣) انظر: في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ٥.

(٤) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ) ٣٣/٢، وعصر الدول والإمارات (٥)، ٥.

سقوط بغداد[1]، ولهذا قبلوا أن يُدعى العصر العباسي بهذا الاسم مع يقينهم بأن دولة العباسيين انتهت بمقتل المتوكل.

بل إن هذا الزمن الممتد بعد مصرع المتوكّل نحو أربعة قرون شهد –على ما سلف– دولًا ودويلاتٍ، نُسبت الأعصر إليها، فثمّ العصر الأيوبي وعصر الحروب الصليبية، وشهد دويلاتٍ مستقلةً كالدولة الحمدانية والدولة الإخشيدية، وثَمّ دول كبرى زامنت ما سُمّي العصرَ العباسي، كدولة العُبيديين الباطنية (وتسمى خطأً الفاطمية)[2] التي بسطت سلطانها على مصر وإفريقية (القيروان وما صاقبها) والشام والحجاز، فالذي يدرس أدب أحد هذه الأقاليم في هذا العصر الذي كانت فيه أَيَسِمُه بالعُبيدي أم بالعباسي؟ وإن وسمه بأحدهما فهل يُقبَل منه، والأوضاع السياسية تتقلّبُ اختلافًا وتغيُّرًا؟

إن الدولة الإسلامية انحلّت انحلالًا كاملًا في أثناء القرن الخامس، ونشأت في شتى الأقاليم ممالك مستقلة عن بني العباس[3]، بل إن بين العصور نفسها أزمنةً انتقالية ربما لا تدخل في هذا العصر ولا ذاك، سكت عنها مؤرّخو الآداب، فجاءت الأقسام متواليةً بلا تعليل، وجاءت العصور تتلو العصور دونما عنايةٍ بمنطق توالد العصور، ومجيءِ بعضها في إثر بعض، ومن أسباب هذا الاضطراب والنقص أن بعض المؤرّخين نظروا إلى التاريخ السياسي نظرةً حدَثيّةً تسوقُ الوقائعَ، ولا تتساءلُ عن أسبابها[4].

ومن جهة أخرى تأمّل كيف جنت التسمية بـ(العصر الأيوبي) مثلًا على الدقة، إذ إن هذا الذي يسمى عصرًا لا يصدق إلا على ما شمله سلطان بني أيوب، وهو الشام والحجاز واليمن ومصر، على ما خامر سلطانَهم من امتداد وانحسارٍ، ومثله (عصر الحروب الصليبية) الذي لا يشمل إلا ما بلغه عتُوّ الصليبيين والملاحمُ بينهم وبين المسلمين، أي بلاد الشام وأطراف مصر، فهل يُجعل العصر أو

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ٣٣/٢.

(٢) قال الذهبي: "وكانوا أربعة عشر متخلّفا لا خليفة". سير أعلام النبلاء، ٢١٢/١٥، وقال السيوطي: "ولم أورد أحدًا من الخلفاء العُبيديين؛ لأن إمامتهم غير صحيحة". تاريخ الخلفاء، ٦٦. ومن قرأ سيرة الحاكم بأمر الله فحسب –وهو أحدهم– استبان له بعض بلوى المسلمين من تلك الدولة.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، ٣٢٨/١.

(٤) انظر: في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ٩٩.

بعض العصور محدودًا بأقاليم؟ وإن قُبل هذا فهل تكون العصور متزامنة أو متتابعة؟ وأي تداخل واضطراب سوف نرِثُ بعد ذلك؟ وهَبْ أديبًا عاش شطرًا من حياته في مصر أيام الأيوبيين، ثم هاجر إلى العراق وعاش فيه باقي عمره، فهل يكون أدبه ضمن ما يُدرَس في (العصر الأيوبي)، أو يكون ضمن ما يُدرَج في (العصر السلجوقي)؟ حقًّا إن هذا التقسيم تعسّفي مرتبط بالاهتمام بالأحداث أو بالأسر الحاكمة[١]، وهو غير صالح لأن يُدرَس به الأدب وتاريخه.

ويُلحق بذلك ما يتصل بـ(العصر العثماني)، فهو أوضح مثال على الاضطراب لا من حيث اختلاف الرأي في تحديد بدايته، ولا من حيثُ نهايتُه، ومن المحقّبين من جعله باسم (العصر التركي)، ومنهم من أدرجه في الدول المتتابعة، وكلّ ذلك جعل هذا العصر مضطربًا، لا معايير واضحة لعدّه عصرًا[٢].

ومن طريف النقد لهذه التسميات قول خالد الجديع: "من تلك التسميات ما له علاقة بطبيعة الصراع مع الآخر، مثل عصر الحروب الصليبية، وقد رَوَّج لهذا المصطلح أحمد بدوي في كتابه (الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية)، ثم رُئي أن زمن الحروب الصليبية يمتدُّ في نحو قرنين من الزمان ولا تغطي المرحلة، فأضيف إلى التسمية عصر المماليك، فصارت كثيرٌ من مناهج الأقسام الجامعية تدرس هذه المدة بعنوان (عصر الحروب الصليبية والعصر المملوكي)، وعلى ما في هذا التقسيم من خطأ منطقي مختلّ -لأن جزءًا من العصر المملوكي قد دخلته الحروب الصليبية - فإن الحروب الصليبية ليست عصرًا؛ ولذا لا يصحُّ أن نصنع في العصور الأدبية ذلك، فنقول عصر حروب الرسولﷺ، أو عصر حروب الأمويين"[٣].

ومن الإشكالات تسمية (العصر الحديث) بهذا الاسم، وجعله عصرًا واحدًا، مع أنه ممتدٌّ في نحو قرنين (منذ ١٢١٣هـ/١٧٩٨م)، وهما، من حيث التغيّرُ والتطوّرُ والاتصالُ بالآداب الأجنبية وثراءُ

---

(١) انظر: شعراء عباسيون منسيون، ٧٣/١، المتن والحاشية.

(٢) انظر: إشكالية التحقيب الأدبي، العصر العثماني مثالًا، ١٦٠.

(٣) انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ١٤٣١/٣/٢٥هـ، ٢٠١٠/٣/١١م. (عن النسخة الإلكترونية يوم الخميس ١٤٣٩/٦/١٦هـ)، بتصرف يسير.

المنجَز الأدبي وتعدُّدُ أجناسه، يَعدِلان عصورًا من الأدب القديم، ولو أن منتهجي التحقيب أعادوا النظر، لوجدوا أنه يمكن جعله في عصور، والخمسون سنةً الأخيرةُ حتى يوم الناس هذا شهدتْ ما لم يشهده ما قبلها، فقد تطوّر السرد والشعر معًا، وبزغتْ حركات تجديد، ومظاهر تمرّد، وتُرجِمت آداب، وتقلّب الأدب في أطوار، فحقُّ هذه الخمسين سنةً أن تُجعل عصرًا بمعيار المحقِّبين، بل إن حقَّ العشرين سنةً الأخيرة (١٤٢٠-١٤٤٠هـ) أن تُجعل في عصر منفرد يُدعى (العصر الرقْمي)! أليس هذا هو ما يقتضيه إخضاع الأدب وتاريخه للتطور التاريخي والتحوّلات السياسية والاجتماعية؟

ثم متى ينتهي العصر الحديث؟ وماذا سوف يسمّى العصر الذي يليه؟ وهل يبقى هذا الحديث حديثًا؟ أليس في هذا التحقيب رجمٌ بالغيب؟ وكأن الزمن سينقضي! وكأنْ ليس بعد هذا العصر عصرٌ!

ومن ثمار التحقيب الفجّة أن نشأتْ مسلّماتٌ وحتميّاتٌ يُراد بها إخضاع الحياة الأدبية لأحكام ثابتة مكرورة محفوظة؛ لأن جمهرة المحقّبين اعتمدوا (العامل) الواحد في تفسير الأدب[1]. وطبيعة الأدب تأبى أن يُخضَع للمسلّمات. وطرقُ تلقّيه وسبل تداوله تكشف أنه مستعصٍ على ما قَوْلَبَه فيه المحقّبون.

ويتصل بهذا أنْ انحصر الاهتمام في أدب البلاط؛ ذلك أن التحقيب مرهون بأدب الحواضر التي تجتمع فيها السلطة السياسية، وعليه فقد عرفنا من كانوا في بلاط الأمويين والعباسيين وغيرهم، وغفلنا عن أدب الأقاليم البعيدة عن تلك الحواضر، التي كان لبعضها خصائص إقليمية مختلفة، فأين أدب أقاصي الجزيرة عمانَ واليمنِ ووسطِها نجدٍ وما تاخمها في سجلّ التحقيب؟ وأين أدب العرب في بلاد النوبة ومصر العليا؟ لقد جُعِل الأدب في (بغداد) مثلًا مقياسًا للأدب العربي في الأقاليم الأخرى، وفي هذا من إغفال العامل الإقليمي ما فيه، فهو من العناصر المهمة في درس الأدب وتطوره[2].

وقد كشفت المدوّنات الكبرى التي رصدت حركة الشعر بخاصة أننا جاهلون أو متغافلون عن أدب غزير، ليست سماتُ كثير منه مندرجةً فيما نزعم من (خصائص الشعر العامة) في عصر من العصور، ولهذا "نتجت عن تطبيق هذا المنهج...آثار سيئة في فهم معنى الأدب ورسالته؛ لارتباطه في

---

(١) انظر: منهجية تاريخ الأدب العربي بين الأصالة والتجديد، عدنان العلي، مجلة البيان، العدد ٢٣٣ (آب ١٩٨٥م)، ٤٤ (نقلًا عن: مناهج دراسة الأدب العربي، ١/١٣٤).

(٢) انظر: النقد العربي الحديث، أصوله، قضاياه، مناهجه، ٢٧١.

أذهان الطلاب دائمًا بالحاكم والتيارات السياسية المصطرعة في كلّ عصر"[١]. وعلى ما شهدته العصور من مظاهر ارتباط الأدب بالسياسة؛ فإن ذلك يبقى مقصورًا على فئة من أدباء البلاط أو السلطة الحاكمة، ولا يصدقُ على الأدباء الذين يحملون لواء الإخلاص لأدبهم[٢].

ويكشف تهافتَ التحقيب ما ذكره شوقي ضيف —وهو من المحقِّبين– من أن مصنّفي الكتب القديمة —ولا سيّما كتبُ التراجم– يجمعون فيها النابهين في كلّ صقع، متناسين الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان، وكأنها عندهم لا تدلّ على فروقٍ علمية أو أدبية[٣]. وهذا يعني أيضًا أن تلك الفواصل السياسية التي يُزعَم بها انتقال الأدب من طور إلى طور لم تكن إلا نتاج رؤية مدرسية[٤] سطحية لم تأخذ سوى ظواهر عابرة، مسقِطةً إياها على النتاج الأدبي كله، فكم دارسٍ أو مؤلِّفٍ قال: (إن من خصائص الشعر في العصر الفلاني كذا وكذا)، وهو لم ينظر إلا في نتاج ثُلّة قليلة، وقد كشفت الدراسات المتجدّدة في شعر المشهورين أو المغيّبين أو المغمورين أن تلك الخصائص محض ادّعاء، نعم قد يجتمع جمهرة من الأدباء في بعض سُبُل القول، وطُرق الإبداع، ولكنّ لكل منهم شخصيته المتفرّدة، حتى بعض الأغفال غير المعروفين. وهذا ما أشار إليه أحد النقّاد إذ قال: إن التحقيب جنى "على مئات الأدباء الذين أغرقتهم هذه النظرية في تيّار التعميم السطحي الذي لا يثبت عند التحقيق والفحص العميق"[٥].

---

(١) نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ١٤٣٣/٢/٢٠هـ، ٢٠١٢/١/١٥ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٤٣٩/٧/١٣هـ، ٢٠١٨/٤/١م.

(٢) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع staff-old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٤٣٩/٧/١٩هـ، ٢٠١٨/٤/٥م.

(٣) انظر: عصر الدول والإمارات (٥)، ٦.

(٤) إن عددًا من المؤلفات المتّبعة لمنهج التحقيب أُلّفت للطلاب، وأشهرها كتاب الزيات الذي كُتب أسفلَ عنوانه الرئيس (للمدارس الثانوية والعليا).

(٥) نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ١٤٣٣/٢/٢٠هـ، ٢٠١٢/١/١٥ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٤٣٩/٧/١٣هـ، ٢٠١٨/٤/١م.

إن نظرية التحقيب السياسي أثمرتْ دراساتٍ سطحيةً ليس لها منهج واضح مُبِينٌ للتعمّق في تقييم[١] الأدب القديم وتاريخه؛ لأن المؤرخين لهذا الأدب يُخضعونه للعوامل السياسية مكتفين بذلك، مع ذكر نُبَذ عن الأدباء وأنسابهم، وبعض جوانب حياتهم، ونماذج من آدابهم[٢]. وإن كانت أثمرتْ نتائج تربوية مهمة، فإنها لم ترق إلى إيجاد تصور نظري خاص يميّز مفهوم (تاريخ الأدب)[٣].

وعلى ذلك فمنهج التقسيم التاريخي هذا لا يؤدي مهمته المرتجاة، مهما تكن الوشائج بين التاريخ والأدب، ثم إن مقاييسه تظلّ رهن المعايير التاريخية القديمة المتوارثة. ومن إخفاقها أنها وضعت حدودًا فاصلة بين الآداب، تبعًا لحدود العصور، والعصور تتداخلُ وتشتبك والنماذج تختلط، ثم إنها أهملت –إلا قليلًا– الأساس المكاني وتأثير البيئة في النتاج الأدبي[٤].

ومن إشكالاتها أنها أهملت النوازع الفردية وخصائص الإبداع الذاتي عند الأدباء، لطغيانِ المقياس الزمني الأفقي، وجمودِ الرؤية[٥]، وتحوّلِ الآراء العابرة الفَطِيرة إلى أحكام قارّة لا يُعاد فيها النظر، ولا يُغيّر فيها ولا يُبدّل، وانظر في بعض الكتب المدرسية التي ينقل بعضها من بعض تجدْ تَصداقَ ذلك. ولهذا كان من النقد الموجّه إلى هذا المنهج أن بعض المؤلفين عرضوا تاريخ الأدب عرضًا مبتسرًا، كان من غوائله، مثلًا، جعل الجاحظ كغيره من الأدباء، بل لم يردْ له فيه ذكر في بعض الكتب إلا بوصف خِلقته، وإشارة موجزة إلى بعض أدبه[٦]، ومن النقد لهذا المنهج أيضًا أنه لا يرتقي بالذائقة الأدبية، بل

---

(١) الأصل اللغوي يقتضي أن يُقال (تقويم)، ولكنّ التطوّر اللغوي يقضي بسلامة استعمال (التقييم)؛ لسببين، الأول: القياس على قولهم: تعييد من (عِيد) وأصله من عاد يعود، وقولهم: (ديّمت السماء)، وهو من ديمة وأصلها الواو: دام يدوم، والثاني: أن من طبيعة اللغة الحيّة التطور والجنوح إلى الدقة في الاستعمال، فالتقويم على هذا يعني التعديل، والتقييم يعني بيان القيمة.

(٢) انظر: النقد العربي الحديث، أصوله، قضاياه، مناهجه، ٢٧١.

(٣) انظر: العرب وتاريخ الأدب، ٥٨.

(٤) انظر: نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ١٤٣٣/٢/٢٠هـ، ٢٠١٢/١/١٥ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٤٣٩/٧/١٣هـ، ٢٠١٨/٤/١م.

(٥) انظر: المرجع السابق.

(٦) انظر: الجاحظ حياته وآثاره، ٩-١٠.

يحدّ الملكة النقدية[١]، لأن متلقيَه –التلميذ غالبًا– يحفظ الأحكام العامة على آداب العصور، ويردّدها ترديد العجماوات، ويحفظ –إن كان ما يزال يحفظ– شواهد وأسماء شعراءَ لا تتغير، ويغيّب عقله بذلك عن إعمال الفكر، ويساعد على ذلك الموات الإبداعي في الدرس ترادفُ التأليف في تاريخ الأدب العربي على نمط مدرسي مكرور، لا تكاد تجد في لاحقه مخالفة لسابقه.

يضاف إلى ذلك أننا إذا حاولنا البحث في النصوص الأدبية دون الاهتمام بالعصور، فإننا كثيرًا ما نقع على قصائد تنتمي لأزمنة متباعدة، ولكن أسلوبها وألفاظها ومعانيها متقاربة جدًّا[٢]، ومن دلالات هذا أن التحقيب لم يصل إلى فصل الآداب وبيان اختلافها على مَرّ العصور، وعليه فقد يُعدّ عدمُه خيرًا من وجوده.

إن مواهب الأدباء وقدراتهم ونبوغ أفراد منهم في ابتكار أجناس، أو تطوير أخرى هو الذي ينبغي أن يكون عليه المعوَّل، و"الأدب نتاج تفاعل نفسي على مدى طويل من الزمن، وهو خاضعٌ لخصائص الأشخاص وصفاتهم، أكثرَ مما هو خاضعٌ للنظام السياسي السائد"[٣]، وانظر مثلًا: أكان لعَيشِ بديع الزمان والمعرّي فيما سمّوه العصر العباسي أثرٌ في ابتكار الأول للمقامات وعناية الثاني باللزوميّات، أو في إنشائه (رسالة الغفران)؟ أوَ كان لعيش مخترعِ الموشّحات مقدّم بن معافى القبري أو مُزامنه وبلديّه محمد بن محمود القبري في القرن الثالث في الأندلس صلةٌ بالوضع السياسي؟[٤]، أو هل كان لبلديّه عُبادة بن ماء السماء الذي أدرك القرن الخامس أن يتأثر بالحدث السياسي، وهو يطوّر الموشحات[٥]، أم أن الطبع الفني عند الأديب، وقوّة ملَكَته، والبيئة التي عاش فيها، هي التي تؤزُّه إلى الابتكار؟ إن الموشّح مثلًا لم ينشأ إلا بأثر طبيعة الحياة في الأندلس، من شيوعٍ لمجالس اللهو، مع

---

(١) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع staff-old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٤٣٩/٧/١٩هـ، ٢٠١٨/٤/٥م

(٢) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع staff-old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٤٣٩/٧/١٩هـ، ٢٠١٨/٤/٥م

(٣) المرجع السابق.

(٤) اختُلف في مبتكر الموشّحات، حتى إن ابن بسّام بعد أن ذكر أنه محمد بن محمود القبري، قال: قيل إنه ابن عبدربّه. انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣٦٢/١، وانظر: دراسات في الأدب الأندلسي، ١٧٢-١١٧٥.

(٥) انظر: الذخيرة، ٣٦١/١.

تفشّي اللغة الوسطى التي يرتضخها جمهرة من الوشَّاحين، وميلِ الأندلسيين إلى الابتكار؛ منافسةً للمشارقة[١]، ولا صلة لنشأتها بمؤثرات سياسية. وعلى ما سبق بسطُه يكون تقسيم الأدب على العصور السياسية ضربًا من توهّم وقوع تحوّلات وتغيّرات أدبية، تبعًا للتغيرات السياسية، وذلك إن صدق في بعضها، لم يصدق في بعضها الآخر، هو الذي يكوّن الجزء الأكبر من أدبنا العربي.

إن خلاصة ما يوجّه إلى هذا التحقيب من نقدٍ أن أصحابه غير متفقين على عدد العصور، ولا مخلِصين لمنطلقاتهم النظرية، وأنهم متجاهلون لطرقِ الانتقال من عصر إلى عصر، وعواملِه وأسبابِه؛ ولذا لم يفلحوا في تمييز العصور تمييزًا يجعل كلَّ عصر قائمًا بنفسه، مستقلًّا عن غيره. ولأن بعضهم لم يفهم حركة الأدب التاريخية فهمًا صائبًا، وجهل أسرار الرقيّ والتقدم فيه، فأوقعه ذلك في عناوين عامّة أطلقت على العصور، وجعل بعضها عصورَ انبعاثٍ، وبعضُها عصورًا ذهبية، وبعضُها عصورَ انحطاط، فأدّى ذلك كلُّه إلى إخفاقهم في وضع تاريخ صحيح دقيق شامل للأدب[٢].

وبعد: فهل الأجدى أن يُدرس تاريخ الأدب بهذا المنهج التحقيبي الذي كثُرت إشكالاتُه، أو أن يُدرس بتتبع المراحل التي تعدّ منعرجاتٍ في التاريخ الأدبي، وهي التي ينشأ فيها جنس أدبي أو يزول فيها جنس آخر، أو تتغير فيها بنية أدبية عما كانت عليه حالها من قبل[٣]؟

إن مما يضيء لنا السبيل هنا ما ذكره إبراهيم النجار عن تقديم جاك لوقوف (le goff) تقسيمًا جديدًا للعصور الوسيطة، في الأدب الأوروبي، مختلفًا عن التقسيم الذي أقرّه الدارسون القدامى، ثم قال –أي النجار–: "وبإمكاننا أن نستوحي من المنهج نفسه تقسيمًا جديدًا للعصور الإسلامية يختلف عما جاء في التقاليد المدرسية، فنضيف للمدة التي اعتبرها التقسيم القديم منعرَجًا من منعَرَجات الأدب العربي نصف قرن"[٤].

---

(١) انظر: دراسات في الأدب الأندلسي، ١٧٧.

(٢) انظر: في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ١٠٥.

(٣) انظر: مقالات في التاريخ الأدبي، ٦.

(٤) شعراء عباسيون منسيون، ٤١/١، الحاشية١. بتصرف يسير.

واقترح النجار في درسه لبعض الأدب القديم ألا نتقيد بالتقسيمات التقليدية، مشيرًا إلى أنه يخرج بمدوّنته عن حدود التقسيم الصارم المرتبط بعام واحد (كان يتحدث عن مقتل المتوكل عام ٢٤٧هـ)، ثم قال: "فهذا الحيِّزُ الزمني منعرَج تاريخي حضاري عرف تشتُّتَ مركزية بغداد وبروزَ عواصم الأقاليم الكبرى، وذلك سيكون له أبعد الأثر في التطورات اللاحقة"(١). وهو بذا يرى الإبقاءَ على شيء من التحقيب، مشروطًا بأن تُراعى التحوّلات والمنعرجات الكبرى في تاريخ الأدب. ولكني أرى أن هذا قد يفضي إلى إهمال الأدباء أنفسهم، ولاسيّما أصحاب التأثير الكبير؛ لأن بعض التحوّلات أو المنعرجات لم ترتبط بأديب واحد فحسب، وذكرُ جمهورهم متعذّر. ثم إن المؤرخين لن يتفقوا على ما يمكن عدّه تحوُّلًا أو منعَرَجًا جديرًا بالذكر سوى ظهور الإسلام، وحينئذ تصبح كتابة تاريخ الأدب خاضعةً لأذواق شتى، ومذاهبَ متعددة في النظر والتدوين. ولا ضير من ذلك بدءًا، غير أنها قد تُدخل تاريخ الأدب في دوّامات من الاضطراب. وهي في كلّ حال- خيرٌ من التحقيب السياسي.

إن دراسة تاريخ الأدب لن تكون ناجعة إلا بإلغاءِ التحقيب، ودراسةِ الفنون والأجناس الأدبية مفصولةً عن الدول والتقلبات السياسية، وهي دعوة ليست جديدة، أشار إليها جمهرة من دارسي الأدب وناقديه. وكان لجرجي زيدان أوّليّة الإشارة إلى درس الأدب بفنونه، إذ قال: "ترددنا كثيرًا في الخطة التي نتخذها في تقسيم هذا الكتاب، بين أن نقسمه حسب العلوم أو حسب العصور، ومعنى قسمته حسب العلوم أن نستوفي الكلام في كل علم على حدةٍ من نشأته إلى الآن، على أن نبدأ بأقدمها، فنذكر تاريخ الشعر مثلًا وتراجم الشعراء، وما تقلّب على الشعر من أول عهده إلى الآن، ونفعل مثل ذلك بالخطابة وغيرها من آداب الجاهلية، وهكذا في العلوم الإسلامية كالفقه والتفسير والنحو واللغة"(٢)، هذا ما قال، ولكنه اختار التأليف على حسب العصور السياسية. ومع ذلك فمصطلح (تاريخ الآداب) الذي سار عليه زيدان مرادٌ به الإنتاجُ العقلي والشعوري للأمة في المجالات العلمية والفلسفية والأدبية، أي ما يصوّر الجانب الحضاري لها، وهذا هو المفهوم الشائع عند

---

(١) المرجع السابق، نفسه.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، ٩/١.

الغربيين[1]. وللرافعي أيضًا مذهب في عرض شيءٍ من تاريخ الأدب يمكن عدّه من إرهاصات هذه الطريقة، فقد عرض لأولية الشعر وفنونه وبعض أغراضه، وبعض الفنون والأوزان المحدَثة.

ولباحثين آخرين جهد في تقديم مقترحات جديدة لدراسة تاريخ الأدب، منهم مرسل بن فالح العجمي في كتابه (عصور الأدب العربي، تحقيب جديد) الذي طالعت منه كتابين، الأول (أدب العصر العتيق، زمن الأسطورة)، والثاني (أدب العصر القديم، زمن الشعر)، وفيهما محاولة لتقديم رؤية جديدة، تُعرِض عن التحقيب السائد، وتقترح بناء النظر على المؤثرات الكبرى، وسيادة الأجناس والفنون.

ومنهج الدراسة المقترحة مزيجٌ من (منهج الفنون الأدبية) و(منهج المدارس الأدبية) مع دراسة التحوّلات الكبرى ذات الأثر البيّن في تطور الأدب ومُضِيّه قُدُمًا في الزمان، علوًّا أو انحدارًا، وذلك بالنظر في كلّ فنٍّ أو جنسٍ على حِدة، وكَشْفِ ما طرأ عليه من تغير وتطوّر، وضعف وخمودٍ، أو قوّة وتجدّد، على تقلب الزمان، دون نظرٍ إلى العصور السياسية وتقلبات الأحداث، إلا حين يكون لها أثرٌ في نشوء فنٍّ أو غرضٍ أو جنسٍ أدبي، كأن يُدرَس رثاء الدول والممالك، فحينئذٍ لا بدّ من عطف النظر إلى الأحداث السياسية التي هيّأت لهذا الغرض أن يظهر ويتطوّر. أو أن يُدرس ما له صلة بالتحولات الاجتماعية، فحينئذ يُستعان بالتحليل الاجتماعي للعوامل المؤثرة في الأدب؛ لأن التاريخ الأدبي لا بد أن يكون تاريخيًا أدبيًّا اجتماعيًّا[2]. وصاحب هذا القول —وإن عبّر بالتاريخ الأدبي– يريد تاريخ الأدب، ولمناقشة الفروق بين المصطلحين حديث آخر، ولكني أقبلهما هنا بوصفهما تعبيرين مختلفين عن شيء واحد، متجوِّزًا تجوّزًا مؤقّتًا.

وقد أعملَ هذه الطريقة في الدرس الجامعي جمعٌ من العلماء والنقاد، منهم سيد نوفل في (شعر الطبيعة في الأدب العربي)، ومحمد محمد حسين في (الهجاء والهجّاؤون)[3]، وشكري فيصل في (تطور

---

(١) المصدر السابق، ١٣/١ الحاشية، وهي من تعليق شوقي ضيف.

(٢) انظر: التحليل الاجتماعي للأدب، ١٦٢-١٦٣.

(٣) انظر: نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ١٤٣٣/٢/٢٠هـ، ٢٠١٢/١/١٥ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٤٣٩/٧/١٣هـ، ٢٠١٨/٤/١م.

الغزل بين الجاهلية والإسلام)، و(شعر الحرب في أدب العرب) لزكي المحاسني، وإن لم ينجُ بعضهم من أثر التحقيب.

ويمكن أن ندرجَ في هذا ما صدر من سلاسل موجزة عن الفنون الأدبية والأجناس، عرَض مؤلفوها للحِكَم والأمثال في كتاب، وللرثاء في كتاب، وللفكاهة في ثالث، وللسيرة الذاتية في رابع، وهكذا.

إن لهذه الطريقة في درْس الأدب وتاريخه من المحامد ما يمكّنُ من مراعاة التسلسل الزماني والعوامل البيئية المؤثّرة، وما يعين على تتبع التطور الفني دون أن يستأثر باهتمامها المشهورون[1]، إذْ هي تعتمد على فحص النتاج الأدبي كله، وتستقرئ وتصف وتحلّل، لكي تصل إلى وصف صادقٍ لحال الأدب والأدباء على مرّ الزمان. وهي بذلك ترفض الأحكام العامة التي تستغرق عصرًا كاملًا، غيرَ مرتبطةٍ بالتاريخ السياسي ارتباطًا سلبيًّا، بل هي تعدّه عنصرًا من عناصر كثيرة تتفاعل، فتؤثر في الأدب والأدباء[2].

إذن فالسبيل الناجعة لسبْر تاريخ الأدب العربي هي في درسه على حسب الفنون والأجناس، على هُدًى من التتبع التاريخي، وهو المنهج الذي ألمعتُ فيما سلف إلى تسمية بعضهم إياه (نظرية الفنون والأجناس الأدبية)، وها هنا نماذج:

يمكن أن ندرس (الشعر الغنائي) مقسَّمًا إلى أغراضه الكبرى، فندرس (القصيدة المادحة) مثلًا ونتتبع تاريخها مبتدئين بشعراء الجاهلية (الأعشى والنابغة الذبياني والحارث بن حلّزة وغيرهم)، ثم نمضي في الزمان قُدُمًا، فنعرّج على ما طرأ عليها من تغيرات عند حسانَ وكعب بن زُهير ومن في زمانهما، ثم ننطلق إلى قصائد شعراء أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني كجرير والفرزدق والأخطل والبعيث وعبيدالله بن قيس الرقيات، ملحّين على مظاهر التطور، والثبات، ونمرّ في الزمن قُدُمًا حتى نبلغ قصائد بشار وأبي نواس فأبي تمام والبحتري فالمتنبي فابن المعلم والأبله البغدادي وابن عُنين...وهكذا حتى

---

(١) يقول لوسيان غولدمان: "إن العمل الأدبي لا يعبّر عن مؤلف فرد، وإنما عن الجماعة التي ينتمي إليها الأديب". انظر: التحليل الاجتماعي للأدب، ١٧٠.

(٢) انظر: نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ١٤٣٣/٢/٢٠هـ، ٢٠١٢/١/١٥ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٤٣٩/٧/١٣هـ، ٢٠١٨/٤/١م.

نصل إلى القرون الثلاثة الأخيرة فنعرّج على القصيدة المادحة عند شوقي وحافظ والجواهري وأبي ريشة وغيرهم من شعراء المناسبات والمهارج الاحتفالية، آخذين في الحسبان ألا نهمل جماهير الشعراء الذين حفلت المدونات بنتاجهم.

وفي كل مرحلة من تلك المراحل لا صلة لنا بتسميات العصور وتحقيبها، بل صلتنا بالقصيدة نفسها، تحولاتها في البناء والمعاني والألفاظ، وتطوّرها، وعلى أيدي من تطوّرت، ومظاهر تأثرها بما جدّ من صلة بآداب الأمم الأخرى.

وهذا مثال آخر:

يمكن أن ندرس المقامة، مبتوتة الصلة بكل تحقيب سياسي، فنبحث في جذورها عند ابن دريد، ثم نشير إلى رائدها الأول بديع الزمان الهمَذاني، وسمات المقامة عنده، ونمضي إلى الحريري رائدها الثاني، فندرس سمات أسلوبه المقامي، وهكذا نمرّ بجمهرة من المقاميين مشيرين إلى المقامات العلمية عند الزمخشري والسيوطي، ذاكرين في مسيرة الدرس عددًا من المقاميين الذين سعى كثيرٌ منهم إلى صبغ مقاماته بشخصيته وأسلوبه، حتى نبلغ (مجمع البحرين) لناصيف اليازجي الذي كان مقلدًا جيدًا للحريري، ولا نغفل عن (حديث عيسى بن هشام) للمويلحي الذي كان مذبذَبًا بين الانتماء للمقامة والخروج عليها، ونعرّج على مقامات حفني ناصف، وما يشبه المقامات عند حافظ إبراهيم (ليالي سطيح)، ثم نشير إلى موتها غير المعلن في زماننا هذا، وإن حاول بعض المتأدّبين إنشاء مقامات[1].

ومثال ثالث:

يمكن أن ندرس أدب الرسالة ابتداءً من نصوصها التي وصلتنا من الجاهلية، على أن يُحقّق أمر صحتها من زيفها، ثم ننتقل إلى رسائل النبيﷺ، فرسائل الخلفاء الراشدين ومن زامنهم، ثم نلتفت إلى مظاهر التطور في رسائل عبدالحميد وابن المقفع، حتى نبلغ الجاحظ فنشير إلى تطور فن الرسالة عنده، وننتقل بعده إلى جمهرة من المترسلين في القرون التي تليه، عند البديع والمعرّي والقاضي الفاضل وابن الأثير وابن حزم وابن زيدون مثلًا، ونقف عند مدرسة الترسل الإنشائي التي خلت من التكلف،

---

(١) منهم محمد العبودي في (المقامات الصحراوية)، وعائض القرني في (مقامات القرني)، وعبدالعزيز بن علي الحربي في (ذات الأكمام).

ومدرسة البديع التي عُنيت بالزخرف البديعي، إلى أن نبلغ غروبَ الرسالة في مصطلحها القديم، ووراثة المقالة إياها في زمان الناس هذا.

وفي المنهج المقترح لدرس تاريخ الأدب ينبغي ألا يكون الإلحاح على الأدباء بل على الأدب نفسه، ولا على الأحداث السياسية والتقلبات الاجتماعية، ما لم يكن لذلك أثر في تكوّن الأدب وتطوّره.

وفيه سوف نتخلّص من الأحكام العامة، وادّعاء الإحاطة، وننتخل آراء أنضجها التأمّل، ونستعين بالتتبع التاريخي على اكتشاف المنعرجات والتحولات الكبرى في الأدب وتاريخه، ولن يؤدي بنا ذلك إلى الجهل بالأدباء؛ لأن تتبّع الفنون والأجناس وتحولاتها لا بد من أن يكون مقرونًا بذكر الأعلام في كل فن وجنس، ولن يكون حديثنا مخصوصًا بالمشهورين دون الأغفال؛ لأن هذا التتبع سوف يتيح لنا الوقوف بكل مظهر فني وكل إبداع.